

الرّد على شُبّهات المستغنين بغير الله

تأليف

العلامة الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى رحمه الله قاضي الجمعة

المتوفى عام ١٣٢٨ هجرية

دار مصير للطباعة

٢٧١ (٦) شارع كاسر صدق البهلول

ترجمة حياة المؤلف

هو العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ إبراهيم بن عيسى قاضي محكمة الجمعة الشرعية من ديار نجد ، (ولا يوجد - والله الحمد - في نجد محكمة غير شرعية) ، مات - رحمه الله - سنة ١٣٢٨ هجرية .

كان - رحمه الله - يشتغل - إلى جانب عمله في القضاء - بالتجارة ، وغالب تجارته في الأقمشة القطنية . جالس أمير مكة الشريف عون الرقيق بن محمد بن عون المتوفى عام ١٣٢٣ هجرية ، فأقنعه بهدم القباب المشيدة على قبور الصالحين في مكة وجدة والطائف والآقبة القبر المزعوم أنه قبر حواء أم البشر في جدة ، وقبة قبر السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبة قبر آمنه المزعوم أنه في مكة ، وقبة قبر ابن عباس بالطائف ؛ فإنه لم يهدمها خوفاً من السلطان عبد الحميد العثماني أن يعزله من الإمارة (السلاطين والملوك يبنون القباب على قبور الصالحين وقبور أجدادهم ، وقد رأيتها في استانبول وبورصة ، والعلماء في كل عصر منهم الخائف من تهمة أنه وهابي ، وأما المتصوفة فجاءت على أهوائهم . وفي كل عصر لثمة أنواع ، والمسلمون والعرب مظلومون من الأقوياء ، ساطهم الله بعضهم على بعض ، وجعل بأسهم بينهم شديداً) . وكان يتردد بين جدة ومكة لشراء الأقمشة من الشيخ عبد القادر بن مصطفى التلمساني أحد تجار جدة ، ومن ذوى الأملاك في القطر المصري . كان يدفع له أربعمائة جنيه ويشتري بألف ، ويسدد الباقي على أقساط بضمانة الشيخ مبارك المساعد البسام من التجار ومن أهل عنيزة (ناحية القصيم وسط نجد) . وقد دام التعامل بينه وبين الشيخ التلمساني زمنا طويلا . وكان لصدقه وأمانته ووفائه بوعده أثر طيب في نفس الشيخ التلمساني ، حتى أنه لم ير ضرورة

للضامن ، وأخذ بيده ما يحتاج إليه بوثيقة تسدد فيما بعد على أقساط . وقال له :
« إني عاملت الناس أكثر من أربعين عاماً فما وجدت أحسن من التعامل
معك يا وهابي ، يظهر أن ما إشاع عنكم يا أهل نجد مبالغ فيه من خصومكم
السياسيين ، بسبب الحروب التي وقعت بينكم وبين أشرف مكة والمصريين
والأتراك ، فقد أشاعوا عنكم أقوالاً منكراً » . فسأله الشيخ أحمد — المؤلف —
أن يبينها له . فقال الشيخ التلمساني : يقولون إنكم لا تصلون على النبي صلى
الله عليه وسلم ولا تحبونه . فأجاب المؤلف : « سبحانك هذا بهتان عظيم .
كيف ومن لم يصل عليه في التشهد في الصلاة فصلاته باطلة ، ومن لا يحبه
فكافر ، وإنما نحن أهل نجد ننكر الاستغاثة والاستعانة بالأموات ،
ولانستغيت إلا بالله وحده ، ولانستعين إلا به سبحانه ، كما كان على ذلك
سلف الأمة » . وقد استمر النقاش بينه وبين الشيخ التلمساني ثلاثة أيام .
وأخيراً هدى الله الشيخ التلمساني للحق ، وصار موحداً ظاهراً وباطناً .

ثم سأله الشيخ التلمساني أن يوضح له بعض أوجه الخلاف بينهم وبين
خصومهم ، فقال : إننا نعتقد أن الله فوق سماواته ، مستو على عرشه استواء
يليق بجلاله ، من غير تشبيه ولا تجسيم ولا تأويل ، وهكذا في جميع آيات
الصفات والأحاديث كما هي عقيدة السلف الصالح ، وكما جاء عن الإمام أبي
الحسن الأشعري في كتابيه : الإبانة في أصول الديانة ، ومقالات الإسلاميين
واختلاف المصلين . وقد دامت المناظرة بينهما خمسة عشر يوماً ، لأن الشيخ
التلمساني كان أشعرياً درس في الجامع الأزهر كتب العقائد السنوسية ، وأم
البراهين ، وشرح الجوهرية ، وغيرها ؛ وقد انتهت هذه المناقشات الطويلة
باقتناع الشيخ التلمساني بأن عقيدة السلف هي الأسلم والأحكم والأعلم . ثم صار
الشيخ التلمساني داعياً من دعاة العقيدة السلفية ، وطبع على نفقته كتباً كثيرة

كان يوزعها بالجمان مثل : « الصارم المنكى فى الرد على السبكى — لابن عبد الهادى » ، و « القصيدة النونية المسماة الشافية — لابن قيم الجوزية » ، و « الاستعاذة من الشيطان الرجيم — لابن مفلح » ، و « المؤمل فى الرجوع إلى الأمر الأول — لابن أبى شامة المؤرخ الدمشقى » ، و « والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان — لابن تيمية » ، و « الرد الوافر — لابن ناصر الدين الدمشقى ، مع رسائل أخرى ضمن الرد الوافر » ، و « غاية الأمانى فى الرد على (شواهد النبهانى) — للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى » . وشاركته فى نفقات الطبع ، واشترى نسخاً من تفسير الطبرى ووزعها على بعض الناس ، وكان لسانه لسان ابن حزم بخشونة لا يصبر عليها أحد ، رحمه الله أجمعين .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد هدى الشيخ التلمسانى على يد الشيخ أحمد بن عيسى ، فقد هدانى — أنا أيضاً — على يده . ومن مؤلفات المترجم :

- ١ — الرد على المدراس والسندى والحابى فى مجموعة الرد الوافر .
- ٢ — شرح نونية ابن قيم الجوزية . (لم يطبع) .
- ٣ — الرد على ماجاء فى تاريخ خلاصة الكلام عن الوهابية لدحلان .

(لم يطبع) .

وكان له تلاميذ كثيرون ، ومن أشهرهم : الشيخ عبد القادر التلمسانى المغربى ، والشيخ أبو بكر بن محمد عارف خوقير المكي الكتبى . وأما فى نجد فكثيرون .

كتبت هذه المقدمة وأنا بعيد عن مكتبتي ، والحمد لله الذى هدانا للحق ؟

كتبه الناشر

محمد نصيف

الرد على شبهات المستعنين بغير الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أظهر الحق وأناره ، ومحى الباطل وأبارَه . أحده على ظهور حجج التوحيد ووضوحها ، وأشكره على تبديد شبه الشرك وفضوحها . وصلى الله على سيدنا محمد الحامى عن توحيد مولاه ، القائل إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله ، الزاجر لمن إلى ذرائع الشرك تعدى ، القائل لمن قال له ماشاء الله وشئت : أجملتنى لله نداءً ؟ وعلى آله وصحبه المهتدين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً . اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وك المستغاث ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

أما بعد ، فقد وقفت على كراسة لبعض العصريين من أهل العراق ، سماها «أمودج الحقائق» ، وضمنها كثيراً من الهديان والشقاشق ، مضمونها الانتصار للشرك بالله ، المسمى بالتوسل ، وتجوز دعوة الأموات والغائبين من دون الله تعالى واستجابته ، والدشنيع على من يمنع من ذلك وسبابه ، فأحببت أن أبين بطلان ما تضمنته كراسته من الشبهات الواهية ، والترهات المتناهية ، وأن أزيح شبهاته ببراهين التوحيد الساطعة ، وأوضح ضلالاته بحجج الكتاب والسنة القاطعة ، وكلام علماء الإسلام ، ومصاييح الاهتداء فى الظلام . لقد خاب ظن المشركين إذ راموا نقض أدلة التوحيد التي هي أرسى من الجبال ، وأظهر من الشمس فى نجر الظهيرة ، والبدر فى ظلم الليال .

والرسالة المذكورة شبه لاشيء ، لكن ربما يُحِيل بها إلى بعض قاصرى الأفهام ، أو لعله يحصل عليهم بها إيهام ، ونحن نكتب على بعضها ما تنتقض

به شبهاته ، وتبطل به خيالاته وتُرَّهاته ، وبالله توفيقى ، وعليه اعتمادى ، وإليه تفويضى واستنادى ، عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

واعلم أن هذا الرجل يُكثر من نقل كلام شيخ الإسلام بن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، ويظهر تعظيمهما ، وبينه وبينهما بون كبير ، وفرق كثير ، فهما رحمة الله عليهما قد شحنتا تصانيفهما ، وملاً تأليفهما بذكر التوحيد وأدلته ، وإيضاح براهينه ، والجواب عن شبهة المشركين من أمثاله ، وبيان ضلالهم ، وتبديد شملهم ، وقطع أوصالهم ، وكم لهما فى الرد على مثله من كتاب وجواب . وهذا الخنزول إن نقل من كلامهما شيئاً ، حذف بعضه أو أفسده بالتصرف ، واستكرهه بالتأويل والتعسف ، ليوافق مذهبه وانتحاله ، وليطابق إفكته وضلاله ، ويمسح أن ينشده فيه :

أيها المدعى سُلَيْمَى سِفَاهَا لست معها ولا قلامه ظفر
إنما أنت من سُلَيْمَى كَوَاوِ ألحقت فى الهجاء ظلاماً بعمرو

واعلم أنه قد تصدى للرد على رسائله ، التى مضمونها الدعوة إلى الشرك بالله ووسائله ، وانتصب لقمع أباطيله ، وإيضاح تلبيسه وأضاليه ، جمع من العلماء ، وجُل من الأئمة الفهماء ، منهم : شيخنا العلامة فقيه زمانه ، وقُدوة عصره وأوانه ، عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين ؛ وشيخنا العلامة الأوحى ، واللوزعى الهمام الفرد ، ناصر الموحدين ، وقامع الملحدين ، عبد الرحمن بن حسن ؛ ومنهم شيخنا العلامة ، والأوحد الفهامة ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن ؛ ومنهم العلامة المحدث فخر الديار البينية ، الشريف محمد بن ناصر الحازمى ، والشيخ العلامة المحقق نعمان بن السيد محمود البغدادى .

ولنقدم بين يدي المقصود مقدمة نافعة ، وقاعدة جامعة ، فأقول
وبالله التوفيق .

اعلم أرشدك الله تعالى أنه قد قام البرهان والإجماع ، على أنه لا يجوز لأحد
أن يعدل عما في الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، إلى
ما أحدثه بعض الناس مما يتضمن خلاف ذلك ، ويوقع الناس في تلك المهالك ،
وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده ، بل عليه أن يتبع
ولا يتبدع ، ويقتدي ولا يبتدي . فإن الله سبحانه بعث رسوله محمدا صلى الله
عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقال له : « قل هذه سبيلي
أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن » . وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم
دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . والنبي صلى الله
عليه وسلم ، علم المسلمين جميع ما يحتاجون إليه في دينهم ، فأخذ المسلمون جميع
ما يحتاجون إليه في دينهم من العبادات والاعتقادات وغير ذلك ، من كتاب
الله وسنة رسوله ، وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وليس في الكتاب
والسنة والإجماع إلا الحق .

فإن الله تعالى قال : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى
ورحمة وبشرى للمسلمين » . وقال تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .
فألهدى والنجاة ، في رد ما اختلف فيه الناس في أبواب العلم ، إلى صريح
الكتاب ، وصحيح السنة وحسنها ، وسبيل سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم
ياحسان ، واقتفى أثرهم بالإسلام والإيمان . فمن اعتمد على هذا الأصل ، دفع به
كل شبهة يوردها مبطل ، فيما يخالف أصل الدين ، أى الإخلاص والتعاطف .
فإن الأدلة المجمع عليها ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، وإجماع سلف الأمة ،
وفي القياس خلاف بين العلماء : هل يكون صحيحه دليلاً أم لا ؟ وكل قياس

يخالف كتابا أو سنة نصّا أو ظاهرا ، أو إجماع سلف الأمة وأئمتها ، فهو فاسد الاعتبار ، لا يعوّل عليه عند جميع العلماء ، من أهل السنة والجماعة .

فإذا قال أحد قولاً يخالف ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، ردّ قوله وبطل ؛ أما إذا صح قياسه على مدلول الكتاب أو السنة ، ولم يكن هناك فارق ، فأكثر العلماء يقول بمثل هذا ويحتج به .

واعلم أن التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وخلق الخلق لأجله ، ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

توحيد الربوبية والملك ، وهو اعتقاد أن الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، وخالق كل شيء ورازقه ، والمتصرف فيه بمشيئته وعلمه وحكمته . وهذا القسم قد أقر به مشركو العرب ، كما قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » ؟ وقوله : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون » ؟ الآيات ، وما في معناها . وهذا التوحيد لا يكفي وحده ، ولا يدخل في الإسلام وحده ، بل لابد أن يأتي العبد معه بلازمه ، وهو :

القسم الثاني :

توحيد الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية ، المبني على إخلاص التأله لله تعالى ، وإفراده بجميع العبادة . وهذا التوحيد هو الذي افتتح به الرسل دعوتهم ، كما قال نوح عليه السلام لقومه : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ، « أن لا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم .

وقد أخبر تعالى أن المشركين يخلصون الدعاء لله في الشدائد ، كما قال تعالى :
« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا
من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب » .
بين تعالى أنه لا ينفعهم إخلاصهم في حال دون حال ، ولا ما أقروا به
لله تعالى من القدرة على الاختراع ، كما تقدم في الآيتين ، فوجب قتالهم ،
لأنهم لم يخلصوا لله العبادة ، ولم يكفروا بعبادة كل ما عبد من دونه . وهذا
هو مدلول كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله » ، ومعناها نفي الإلهية عن كل
ما سوى الله تعالى ، وإفراذه بالإلهية ، كما قال تعالى : « قل إنما أنا بشر
مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا
صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وقال عن خليله عليه السلام : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء
مما تعبدون ، إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين » ، وجعلها كلمة باقية في عقبه .
فأمل كيف عبر عنها بمدلولها من النفي والإثبات .

وأخبر الله تعالى عن المشركين أنهم أبوا أن يقروا بمعناها الذي دلت
عليه ، كما قال تعالى : إنهم كانوا « إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون
أئنا لنناركو آلهتنا لشاعر مجنون » ؟ فتبين أن المطلوب منهم بهذه الكلمة ، ترك
عبادة الآلهة ، وذلك الترك لا يدخل أحد في الإسلام إلا به . كما قال آزر لابنه
إبراهيم عليه السلام : « أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ وهذا هو معنى
الحنيف في قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يكن من
المشركين » . وفسر الحنيف بأنه المقبل على الله ، المعرض عن كل ما سواه ، قاله
ابن القيم . وقال ابن كثير : الحنيف المنحرف عن الشرك قصدا إلى التوحيد .
وكل سورة من القرآن فيها ما يدل على هذا التوحيد ، فتارة يأمر به تعالى

عباده ، وتارة ينههم عن الشرك المنافي له ، كما سنذكر بعض ذلك في هذا
الجواب ، وبالله التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل
القسم الثالث :

توحيد الأسماء والصفات : وهو العلم والاعتقاد بأن الله تعالى بكل شيء
عليم ، وعلى كل شيء قدير ، حتى قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، منزه عن كل
عيب ونقص ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، سميع بصير ، رؤوف رحيم ،
على العرش استوى ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه وتعالى
عما يشركون ، له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى . فما أثبت الله لنفسه ، وأثبت له
رسوله ، من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وجب إثباته له ، على ما يليق
بجلال الله تعالى وعظمته ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيها بلا تعطيل ، وهذا هو الذى
عليه الصحابة والتابعون ، والأئمة الأربعة ومن فى طبقتهم ومن بعدهم من أهل
الحديث ، وأتباع الأئمة الأربعة من أهل الحديث ، والفقهاء من أهل السنة
والجماعة .

وأول ما حدث من الإلحاد فى أسماء الله وصفاته ، بنفى ما دلت عليه الأسماء
والصفات ؛ مقالة الجعد بن درهم ، فأنكر ذلك أهل العلم من التابعين ، وضحى
به الأمير خالد بن عبد الله القسرى ، وقصته مشهورة فى التاريخ ، قال العلامة
ابن القيم :

ولأجل ذا ضحى بمجد خالد الـ قسرى يوم ذبأح قربان
شكر الضحية كل صاحب سنة الله درك من أخى قربان

ثم جاء بعده جهنم بن صفوان ؛ فجدد صفات الرب وحكمته ، وأنكر
ذلك عليه الأئمة من الفقهاء وأهل الحديث ، وصنفوا المصنفات فى رد قوله ،

وإثبات صفات الرب تعالى ، واستدلوا بأدلة الكتاب والسنة ، وآثار السلف ، على إثبات ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، لا يتجاوزون القرآن والحديث ، وهم العدد الكثير ، والجم الغفير . والأمر كما قال نعم بن حماد الخزازي شيخ البخاري ، قال : « من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ، ولا ما وصفه به رسوله تشبيها » . وكتبهم مشهورة يتداولها المسلمون ، وعدّها يخرج بنا عما قصدناه من الاختصار . ومن أراد الاطلاع على معتقد أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا ، فليطالع تفسير الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، وتفسير الحسين بن مسعود البغوي ، وتفسير العباد بن كثير الشافعي ، ونحوها من تفاسير أهل السنة ؛ وكذلك كتب الحديث ، كالصحيحين والسنن والمسانيد ، فإن الحق عليه نور ، والحمد لله على معرفة الحق ، واتباع سبيل أهل الإيمان والصدق ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، غير مكفي ولا مكفور ، ولا مُودع ولا مستغنى عنه ربنا . وهذا حين الشروع في رد شبه العراقي .

قال في كراسته : « واليمين بالنبي صلى الله عليه وسلم منعقد ، وبسائر الأنبياء ، كما أطبق عليه علماء المذهب سوى الشيخ ، فإنه خالف أهل المذهب ، ولم يصرح بمراده ، والظاهر أنه لا يستحب عنده بل يكره كراهة تنزيه » انتهى . قوله : « سوى الشيخ » : يعني به شيخ الإسلام بن تيمية .

أقول : انظر إلى هذه الجرأة والكذب على العلماء ، ولنذكر كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ، قال في كتاب الاستفتاء .

« وقد اتفق العلماء على أنه لا تنعقد اليمين بغير الله ، وهو الحلف بالخلقوات ، كالملائكة والكعبة أو أحد من الشيوخ ، بل يُنهي عنه ، إماما نهى تحريم

أو تنزيه . فالصحيح أنه نهى تحريم ، وهو قول أكثر العلماء ، ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . وفي الترمذي عنه أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين إنه تنعقد اليمين بأحد من الخلق ، إلا في نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإن عن أحمد في ذلك روايتين ، في انعقاد اليمين به ، وقد طرد بعض أصحابه كابن عقيل ، الخلاف في سائر الأنبياء ، وهذا ضعيف ، والقول بانعقاد اليمين بالنبي صلى الله عليه وسلم ضعيف شاذ ، لم يقل به أحد من العلماء فيما نعلم ، والذي عليه الجمهور : مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، أنه لا تنعقد اليمين به ، كما حدى الروايتين عن أحمد ، وهو الصحيح « انتهى كلامه .

فانظر حكاية هذا الضال عن علماء اللذهب ، انعقاد اليمين بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبسائر الأنبياء ، وانظر حكاية الشيخ : الاتفاق على أنه لا تنعقد اليمين بالخلق ، إلا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن عن أحمد رواية في انعقاد اليمين به ، وإن الذي عليه الجمهور ، عدم انعقاد اليمين به ، وانظر إلى تصحيحه أن النهي عن الحلف بالخلق نهى تحريم ، وهذا للبلدس يقول : (ولم يصرح بمراده) وأي تصريح أبلغ من هذا ؟ نعوذ بالله من الهوى .

فصل

قال العراقي : « إن المانع من نداء الأنبياء والصالحين ، وسؤالهم بعد موتهم . وفي غيبتهم ، يستدل على المنع ، بأن النداء والطلب عبادة ، والعبادة لغير الله شرك . قال : فإذا جاز هذا في حقه صلى الله عليه وسلم ، دل على أنه ليس كما يزعمه الخوارج من أن ذلك عبادة ، ودل على أنه إذا جاز في حق النبي صلى الله عليه وسلم جاز في غيره » .

والجواب أن يقال : هذا الضال لا يعرف العبادة ، ولا ما ذكره العلماء في تعريف العبادة ، بل هو لا يعرف ما أرسل الله به رساله ، وأنزل به كتابه ، من توحيد الإلهية ، ووجوب إفراده تعالى بالعبادة ، بل نشأ على الشرك ، وسيطاً بلحمه ودمه ، فلا يعرف غيره ، ولا يفهم سواه ..

قوله : إن المانع من نداء الأنبياء والصالحين وسؤالهم بعد موتهم ... الخ

أقول : انظر إلى شدة جهالته ، وعظمة ضلالته ، لما رأى شناعة إطلاق القول ، بجواز دعاء غير الله تعالى ، عدل إلى لفظ النداء ، تلييساً وتمويهاً على الجهال والطعام ، فسكأنه لم يسمع ما ذكره الله تعالى في كتابه ، من أن مدلول النداء والدعاء واحد . قال الله تعالى : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب إني وهن العظم مني » . فقوله « رب » هذا هو الدعاء ، سماه نداء ، ثم قال : « ولم أكن بدعائك رب شقياً » فبين أن النداء في هذه الآية هو الدعاء لاغير .

وقال في سورة آل عمران « هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب » فقوله « رب » هو الدعاء في قوله . « هنالك دعا » .

وفي سورة مريم قال : « إذ نادى » وفي سورة آل عمران قال : « دعا » والصيغة واحدة . ثم قال : « إنك سميع الدعاء » ، وقال تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات : أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

وفي الحديث مرفوعاً : « دعوة أخي ذى النون : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ، ما دعا بها مكروب إلا قرّج الله عنه » .

وقال تعالى : « ونوحا إذ نادى من قبلُ فاستجبنا له » ، وقال « فدعا ربه
أنى مغلوب فانتصر » ، فمدلول الدعاء والنداء واحد . وقال تعالى : « وأيوب
إذ نادى ربه : أنى مسنى الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين » ، وقوله : « وذكريا
إذ نادى ربه » . . . الآية .

وفى الحديث عن الصلت بن حكيم بن معاوية بن حميدة القشيريّ ، عن أبيه ،
عن جده : « أن أعرابيا قال : يا رسول الله ، أقریب ربُّنا فنناجیه ، أم بعيد فننادیه ؟
فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى
فأنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » إذا
أمرتهم أن يدعونى فدعونى أستجيب لهم » . رواه ابن جرير ، وابن مردويه ،
وأبو الشيخ الإصبهانيّ ، من حديث محمد بن حميد ، عن جرير (كذّاب) ،
والأدلة على هذا من الكتاب والسنة كثيرة ، وكذا كلام العرب ، قال كعب
ابن أسد الغنوى :

وداع دعا يامن يُجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذلك مجيبُ
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهره لعل أبى المغوار منك قريبُ
وقال آخر :

فخيرُ نحن عند الناس منكم إذا الداعى المثوب قال يالآ
وقال آخر :

فقلت ادعى وأدعُ فإن أن سدى لصوت أن ينادى داعيان
وفسر قوله تعالى « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله » بالموذن ، وهو الذى
ينادى بالصلاة .

والمقصود أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام العرب ، دالة على أن النداء الذي هو السؤال والطلب ، هو مسمى الدعاء ، ومعناها واحد . ويأتي في هذا ما يكفي ويشفي إن شاء الله تعالى ، كقوله تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » الآية . وهذا صريح في أن المراد بهذا الدعاء السؤال والطلب من غير الله ، وهذه حال الميت والغائب ، لا يستجيب للداعي ، وهو أيضا غافل عنه .

وهذا الدعاء الذي نهى الله عن أن يقصد به غيره ، يجمع من أنواع العبادة كثيرا . منها : أن الداعي يتوجه بوجهه وقلبه ولسانه إلى غير الله ، ويتضمن رجاءه ، والرغبة إليه ، والاعتماد عليه ؛ ولذلك وصفه الله تعالى بغاية الضلال ، وأخبر أن ذلك يعود عليه بالخيبة والوبال ، في مقام الحشر ، فيخونهُ ذلك الدعاء أحوج ما يكون إليه .

إذا تبين هذا ، فالتحقيق أن بين الدعاء والنداء عموما وخصوصا مطلقا ، فيجتمعان في السؤال والطلب ، إذا كان عن رغبة أو رهبة ، ويفرد الدعاء إذا كان عبادة ، كالنسيح والتحميد والتكبير وغير ذلك . إذا عرفت هذا ، فإن أشكل عليك كون الدعاء عبادة ، فاطلب الأدلة على ذلك من القرآن الكريم ، فإن لم يكفك — لا كفالك الله — فاطلبها من السنة ، فإن لم تكفك فقد تم خسرانك .

قال تعالى : « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » ، في سورة غافر ، وقال تعالى : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » الآية . وهذه الآية في دعاء المسألة ، دلت على أنه مختص بالله ، دون من سواه ، لأن تقديم الممول يفيد الحصر . ثم قال : « والذين يدعون

من دونه لا يستجيبون لهم شيء . « . بين أن دعاء غيره لا يحصل لداعيه غرضه ، وهذا جنس الشرك في الإلهية .

وفي حديث أنس الذي في السنن والمسانيد مرفوعاً : « الدعاء مُخَّ العبادة » .
وفي السنن مرفوعاً ، من حديث الزمان بن بشير : « الدعاء هو العبادة » . ثم تلا :
« وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

وتقرر هذا في كتاب الله تعالى ، فإن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بدعائه ، ورغبهم فيه ووعدهم الإجابة ، فقال تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .
وأمرهم بدعائه في مواضع كثيرة من كتابه ، كقوله : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » ، إلى قوله « وادعوه خوفاً وطمعاً » . وقال : « فادعوا الله مخلصين له الدين » ، وقال : « فادعوه مخلصين له الدين » . فأوجب على عباده أن يخلصوا له الدعاء بنوعيه : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، وكل منهما يتضمن الآخر ، وقد تقدم أن الله تعالى قد اختص به في قوله : « له دعوة الحق » . وقال تعالى : « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحداً » . وقوله : « قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً » .

وهذه الآيات مع ما تقدم ، فيها الدلالة على أن دعوة غير الله شرك وضلال ، كما قال : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ؟ » وفي الترمذي من حديث أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج عُتُق من النار ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وُكِّلت بثلاثة ؛ بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين » . حديث حسن ، صحيح ، غريب .

أما علمت أن الله تعالى أمر نبيه بإخلاص العبادة له ، كما نهاه أن يدعو غيره ، فقال : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا الله الدين الخالص » . وقال في آخر السورة : « قل أغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون ؟

وقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص جميع أنواع العبادة لله ، وخلع الأنداد التي كانت تعبدُها أهل الجاهلية ، من صنم وغيره ، وجاهدتم على ذلك حق الجهاد ، وناظر النصارى في عبادتهم المسيح ابن مريم عليهما السلام ، وأنزل الله تعالى النهى عن دعوة الأنبياء والصالحين والملائكة ، فقال : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » . والآيات بعدها نزلت فيمن يدعو للمسيح وأمه ، والعزير والملائكة ، في قول أكثر المفسرين من السلف . فمن بلغت هذه الأدلة ، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرُضيه الإعراض عن سؤال ربه والرغبة إليه ، ورجاؤه والاعتماد عليه ، فقد ظن برسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو بريء منه ، كما برأه الله تعالى بقوله : « قل إنما أدعوني ولا أشرك به أحداً » . وقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

ففي هذه الآية من الأدلة على بطلان دعوة غير الله فوائد ، منها : أن الله تعالى حكم على من دعا غيره بغاية الضلال ، وبين أن المدعو لا يستجيب له ، وأنه غافل عن دعائه ، تكذيباً لمن ادعى غير ذلك من المشركين ، وأنه يوم القيامة يكون عدواً لمن دعا في دار الدنيا ، وأنه ينكر عبادته له ، ويبرأ إلى الله منها . كما أخبر عن المسيح عليه السلام أنه قال : « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم » . فخان المشرك دعاؤه لغير الله أحوج ما كان إليه ، وعامله الله بنقيض قصده .

و يشبه هذه الآية قوله تعالى : « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير ، إن تدعُوهم لا يسمعو دِعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بِشرككم » .
ففي هذه الآية ستِ جمل تقطع عِرْق الشرك ، وتبطل دعوة غير الله كأننا من كان .

الجملة الأولى: قوله «ذلكم الله ربكم له الملك» ، فهو المختص بالملك ، كما هو المختص بالعبادة . وقوله : «والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير» : داليل على أن غيره لا يملك شيئاً . فإذا كان الأمر كذلك ، وجب ألا يدعى غيره . وقوله : «إن تدعُوهم لا يسمعو دِعاءكم» ، وهذا نقيض ما عند المشركين ، أن المدعو الميِّت يسمع من دعاه ، والله تعالى يقول : « إن تدعُوهم لا يسمعو دِعاءكم » . آمنا بالله ، وكذبنا من أشرك بالله .

وقوله : « ولو سمعوا ما استجابوا لكم » : يدل على أن الاستجابة ممتنعة في حق من دعا غير الله ، فغاب أمله ، وضل سعيه .

وقوله : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » : فيه أن دعوة غير الله شرك بالنص ، وأن المدعو يكفر بها يوم القيامة ؛ أي ينكرها ويبرأ إلى الله من ذلك الشرك . « ولا يَنْبِئُكَ مثل خبير » : ففيه وجوب الإيمان بما دلت عليه هذه الآية ، وتصديقه فيما أخبر ، وتضمنت هذه الآية أن الدعاء الذي نهى عنه في هذه الآية ، أنه دعاء المسألة ، بدليل قوله « لا يسمعو دِعاءكم » . والأدوات التي تستعمل في الدعاء كثيرة معروفة ، وأكثر ما يستعمل منها في الكتاب والسنة وغيرهما « يا » الممدودة ، كقوله : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، وقوله : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » التقدير ، « يا ربنا » .

ونستعمل في الدعاء مذكورة ، كما جاء في كثير من الأحاديث ، كقوله :
« يا حيُّ يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا بديع السماوات والأرض ،
يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالاً لما يريد » . ونحو ذلك ، وهذا كثير
مطرد ، لا يقدر أحد على دفعه . ويأتي الدعاء أيضاً بصيغة الخبر ، ومعناه الدعاء ،
كقولنا : صلى الله على النبي محمد ، وقولهم : بارك الله فيك ، ونحو ذلك .

والعجب أن هذا خفي على من يدعى المعرفة ، وسببه نسيان العلم ، كما ذكره
الله تعالى في قوله : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول أأنتم أضللتهم
عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا سبحانك ، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ
من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكرا ، وكانوا قوماً
بؤراً » . فنسيان الذكرا من أعظم أسباب ضلال من ضلّ عن الهدى . وقد قال
تعالى : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا براهان له به ، فإنما حسابه عند ربّه ، إنه
لا يقلح الكافرون » . فدلّت هذه الآية الكريمة ، على أن من دعا مع الله
إلهاً آخر ، أنه كافر بالله ، لأنه صرف هذا النوع الذي هو من خصائص
الإلهية ، إلى من لا يستحقه ، ووضع العبادة في غير موضعها .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا
أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم
كانوا كافرين » . فلم ينفعهم ذلك الدعاء في الوقت الذي أمّلتوا فيه نفعه ، فوقعوا
في نقيض قصدهم ، وخاب أمّلتهم وسعيهم ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر .



فصل

وقد أمر الله سبحانه بدعائه ، وشرعه لعباده ، وأحبه منهم ، وسماه ديننا ،
وأنى فيه بأل المعرفة المؤكدة ، فقال : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره
الكافرون » . وهذا شأن العبادات ، فما أمر به سبحانه عباده ، ففعله عبادة .
وفي الحديث : « من لم يسأل الله يغضب عليه » وفي حديث آخر : « الدعاء
سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض » . فكيف والحالة هذه أن
يجعل الله شريكا فيما شرعه لعباده ، وأمرهم بأن يخلصوه له ، ونهاهم أن يجعلوا
له شريكا فيه ، كما قال تعالى : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ،
ونزد على أعقابنا بعد إذ هदानا الله ؟ إلى قوله : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .
وقد تقرر أن الدعاء يجمع من أنواع العبادة كثيرا ، كإسلام الوجه لمن
يدعوه ، والرغبة إليه ، والاعتماد عليه ، والخضوع له ، والاطراح والتذلل ؛ فمن
أسلم وجهه لغير الله فهو مشرك ، شاء أم أبى ، ومن رغب عن الله إلى غيره
فكذلك ؛ قال الله تعالى : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ،
واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .
قال ابن كثير في الآية : أى أخلص العمل لربه ، عز وجل ، فعمل إيمانا
واحتسابا وهو محسن ، أى مُتَّبِع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله ،
من الهدى ودين الحق . فمن فقد الإخلاص ، كان منافقا ، ومن فقد المتابعة كان
ضالاً جاهلاً ، ومتى جهما فهو عمل المؤمنين ، الذين يُتَّقَبَل عنهم أحسن ما عملوا ،
ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يُوعَدون .
والحنيف : هو المقبل على الله ، المعرض عن كل ماسواه ، كما تقدم ، وهذا
هو حقيقة دين الإسلام ، وقد اشتدت غرْبته في هذا الزمان وقبله ، حتى عاد

المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، نشأ على هذا الصغير ، وهَرَمَ عليه الكبير ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، ورغب كثير عن إخلاص العبادة للذى له الملك كله ، والقدرة التامة ، والمشيمة النافذة ، فجعلوا له شركاء في عبادته ، والحاذق منهم يتعلق بأمر الشفاعة .

وقد أخبر تعالى أن الشفاعة جميعها له ، فمن طلبها من غير الله ، فقد طلبها من لا يملكها ، ولا يسمع ولا يستجيب ، وفي غير الوقت الذى تقع فيه ، ولا قدرة له عليها إلا برضاء من هى له ، وإذنه فيها وقبوله ، فطلبها ممن هى له في دار العمل عبادة من جملة العبادات ، وصرف ذلك الطلب لغيره شرك عظيم .

ومن تدبر آيات الشفاعة حق التدبُّر ، علم علما يقينا أنها لا تقع إلا لمن أخلص أعماله كلها لله ، واتبع ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من توحيده وشرائع دينه ، فليس لله من عمل عبده إلا الإخلاص ، كما قال تعالى : « ألا لله الدين الخالص » . وقال : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها وإن كان يناله التقوى منكم » ، وهو لا يقبل الشركة في الأعمال ، ولا يرضاها ، قال تعالى : « إن الله لا يقبل أن يشرك به ، ويعفّر مادون ذلك لمن يشاء » . وقال تعالى : « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار » . وكما صح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى ، تركته وشركه » .

فصل

والدعاء : صلاة ، وهو اسم لغة ، وجاء في القرآن كذلك ، قال تعالى :
« وصلِّ عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم » : أى ادعُ لهم .

وفي الحديث من هذا كثير ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الملائكة
تصلي على أحدكم مادام في مُصَلَّاه الذى صلى فيه ، ما لم يحدث : اللهم اغفر له ،
اللهم ارحمه » . قال الحافظ العراقي : المراد بصلاة الملائكة عليه : ما فسَّره به
في بقية الحديث ، من قوله : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه . وهذا دعاء ،
وشواهد في اللغة كذلك .

ومنه قول الأعشى :

تقول بنتى وقد قرَّبتُ مرثلاً يارب جنبِ أبى الأوصابِ والوجعِ
عليكِ مثلُ الذى صلَّيتِ فاغتمضى يوماً فإنَّ لجنبِ المرءِ مضطجعاً

فإذا كان الدعاء صلاة لغة ، وجاء كذلك في الكتاب والسنة ، عُلِمَ بذلك
أن قول الله تعالى : « قل إن صلاتى ونُسُكى ونُحْيَاىَ وماتى لله رب العالمين ،
لا شريك له » يتناول الدعاء . ولا ريب أن الصلاة الشرعية تتضمن الدعوات
الواجبة ، والتحقيق أنها سميت صلاة لاشتمالها على نوعى الدعاء : دعاء المسألة ،
ودعاء العبادة ، فلا تخرج عنهما ، كما سيأتى تقريره إن شاء الله تعالى .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالإكثار من الدعاء في السجود ،
فقال : « فأما الركوع فعظّموا فيه الرب تعالى ، وأما السجود فأكثرُوا فيه من
الدعاء ، فمَن أن يستجاب لكم » . قال النووي في شرح مسلم : (اختلف العلماء
في أصل الصلاة ، فقيل هى الدعاء ، لاشتمالها عليه . وهذا قول جماهير أهل العربية

والفقهاء وغيرهم» . انتهى . وهذا هو الذى قرره العلامة ابن القيم رحمه الله ، كما سيأتى . فإذا كانت الصلاة قد اشتملت على الدعاء ، فلا ريب أنه عبادة ، وقد اشتملت على التكبير والتسبيح ، وهو عبادة أيضا .

ولا يرتاب مسلم أن التكبير والتسبيح لا يجوز أن يستعمل فى حق غير الله — ، لكونه من خصائص الربوبية ، فكذلك الدعاء ، ولا فرق ؛ فتدبر هذا وما قبله من الأدلة على ذلك ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ، فى معنى قوله تعالى « ادعوا ربكم تضرعاً وخُفياً » يتضمن نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة ، متضمن لدعاء العبادة ، لهذا أمر بإخفائه وإسراره . وقوله « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان » يتناول نوعى الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية : قيل أعطيه إذا سألنى ، وقيل أئيبه إذا عبدنى ، والقولان متلازمان ، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك فى معنياه ، أو حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة ، المتضمنة للأمرين جميعاً . فتأمل ، فإنه عظيم النفع .

وهذا التقدير يأتى فى مسألة الصلاة ، وأنها نُقِلت عن مسأها فى اللغة ، وصارت حقيقة شرعية منقولة ، أو استعملت فى هذه العبادة مجازاً ، بالعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى ، فُضِم إليها أركان وشروط ، وعلى ما قررناه ، لا حاجة إلى شيء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاة إلى آخرها ، لا ينفك عن دعاء ؛ إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . انتهى ملخصاً .

وفسر القنوت بالدعاء فى قوله تعالى : « وقوموا لله قانتين » . قال فى شرح التقريب : والقنوت : يطلق بإزاء معان ، قيل الطاعة ، وقيل الدعاء ، وبمعنى طول القيام ، وبمعنى السكوت فى الصلاة .

قال القاضي عياض : وأصله الدوام على الشيء .
قال ابن دقيق العيد : وإذا كان هذا أصله ، فقديم الطاعة قانت ، وكذلك
الداعي ، والقائم في الصلاة ، والمخلص فيها ، والساكت فيها ، كلهم فاعلون
للقنوت . انتهى ملخصاً .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : العبادة ، اسم جامع لكل
ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال ، والأعمال الظاهرة والباطنة . انتهى .
وقد تقدم ما يدل على أن الله تعالى يرضى من عبده أن يسأله حاجته ،
وأمره بذلك ، ووعدّه عليه بالاستجابة ، فإذا كان الدعاء عبادة ، فقد أمر الله
عباده بعبادته وحده ، كما قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ،
وقال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » ، « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .
والإله هو الذي تأله القلوب وتعبده ، بأي نوع كان من أنواع العبادة ، وهو
الذي فسّره اسمه الله .

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله : الله : مشتق من الإله ، سقطت
الهمزة التي هي فاء الاسم ، فالتقت اللام التي هي عين الاسم ، واللام الزائدة ،
وهي ساكنة ، فأدغمت في الأخرى ، فصارتا في اللفظ لهما واحدة مشددة .
وأما تأويله فإنه على ما روي لنا عن ابن عباس : هو الذي يتأله كل شيء ،
ويعبده كل خلق . وساق بسنده عن ابن عباس قال : الله ذو الألوهية
والعبودية على خلقه أجمعين . انتهى .

وقال الزمخشري : الله : أصله الإله ، فحذفت الهمزة ، وعوض منها حرف
التعريف ، ولذلك قيل في النداء : يا إله . والإله : من تأسماء الأجناس كالرجل
والفرس ، اسم يقع على كل معبود ، بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود
بحق . انتهى . . .

وفي القاموس : « أَلَهَ إِلهَةً وَأَلوهَةً ، وَأَلوهِيَةً ، عبد عبادة ، ومنه لفظ الجلالة ، وأصله إِلهٌ كِفْعَالٌ ، بمعنى مألوه ، فكل ما اتخذ معبودا إلهٌ عند متّخذِه . والتألهُ : التمسك والتعبد ، والتأليهُ : التعبيد . انتهى .

فتبين مما تقرر أن من دعا ميتا أو غائبا ، فقد اتخذ معبودا بدعائه ، ورغبته إليه ، ورجائه له ، وإقباله عليه ، دون من له الأسر كله ، والقدرة التامة ، والمشيئة النافذة ، والعلم بما كان وما يكون ، وما لم يكن كيف يكون لو كان ، « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ! »

فصل

قال العراقيّ : « نعم صرح فقهاء الحنابلة بكراهة طلب الحاجات من الأموات كراهة تنزيه ، على وجه مخصوص ، وهو طلبها بالكتابة ، ودس الورق في أنقاب القبر ، قال : وقد ذكر ذلك ابن مُفْلِح في الفروع ، وفسّرها بما ذكرته ، ونص عبارته عن القنون ، قال - يعني ابن عَمِيل - : ويكره استعمال النيران ، والتبخير بالعود ، والأبنية الشاهقة القباب ، سَمُوا ذلك مَشْهَدًا ، واستشفوا بالتربة من الأسقام ، وكتبوا إلى التربة الرقاع ، ودسوها في الأنقاب ، فهذا يقول : جمالي قد جَرِبْتُ ، وهذا يقول أرضي قد أُجْدَبْتُ ، كأنهم يخاطبون حَيًّا ، ويدعون إلهًا . انتهى .

قال العراقيّ : « فانظر إلى حكمه في هذه الأشياء بالكراهة التنزيهية ، مع قوله : « كأنهم يخاطبون حَيًّا ويدعون إلهًا » .

أقول : سبحان مُقَبِّب القلوب ، فههنا تُسَكَّب التبرات ! انظر إلى تلبيس هذا الضالّ ، واجتهاده في الدعوة إلى الشرك بالواحد المتعال . ولنذكر كلام

ابن عقيل في الفنون ، على وجهه الذي نقله عنه صاحب الفروع . قال في الفروع وفي الفنون : « لا تُخلَق القبور بالخلوق ، والتزويق ، والتجميل لها ، والطواف بها ، والتوسل بهم إلى الله » . قال : « ولا يكفيهم ذلك حتى يقولوا : « بالسر الذي بينك وبين الله » وأي شيء من الله يسمى سرا بينه وبين خلقه » . قال : « ويكره استعمال النيران » إلى آخر ما نقله العراقي . فانظر كيف ترك أول الكلام لمصادمته لفرضه ، وسقوطه على علمته ومراضه . وانظر إلى كلام ابن عقيل ، وتصريحه بالنهي عن التوسل ، إلى آخر كلامه ، يتبين لك أن الله قد أضل هذا وأعماه ، وأقامه في هوة هواه ، وليس هذا بأول قارورة كسرت في الإسلام منه ومن أمثاله .

ولابن عقيل رحمه الله كلام أصرح من هذا الذي ذكره صاحب الفروع عنه . قال أبو الوفاء بن عقيل : لما صُعِبَت للتكليف على الجهال والطغام ، عدلوا عن أوضاع الشرع ، إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسَهَّت عليهم ، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم . قال : وهم عندي كفار بهذه الأوضاع ، مثل تعظيم القبور ، وإكرامها بما نهى عنه الشرع : من إيقاد الشرج وتقبيلها ، وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائح ، وكتب الزفاعة فيها : يا مولاي افعل بي كذا وكذا ، وأخذ تربتها تبركا ، وإفاضة الطيب على القبور ، وشد الرحال إليها ، وإلقاء الخرق على الشجر ، اقتداءً بمن عبد الآلات والمعزى ، والويل عندهم لمن لم يقبل مَشْهَد الكف ، ولم يمسح بالآجر يوم الأربعاء ، ولم يقل الجمالون على جنازته : أبو بكر الصديق ، أو محمد ، أو علي ، ولم يعقد على قبر أبيه أزجاً بالجلس والآجر ، ولم يخرق ثيابه إلى الذيل ، ولم يُرِق ماء الورد على القبر . انتهى كلامه .

فانظر إلى تصريحه بكفر فاعل هذه الأمور ، وهذا الملبس يقول : إنه مكروه عنده كراهة تنزيه ، إذا كان طلب الحوائج من الأموات بالكتابة

ونحوها . فأما طلب الحوائج من الأموات بالاسان ، فستحب عنده . فسبحان
من مسخ عقله ، وأظهر تلييسه وجهله !

ويشبه هذا ما حُكي أن رجلا اجتمع بامرأة ليزني بها ، فلما جامعها
قال لها : أستري وجهك ، فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام .

قوله : صرح فقهاء الحنابلة بكراهة طلب الحاجات من الأموات
والغائبين . . . إلى آخره .

جوابه أن يقال : بل صرح فقهاء الحنابلة وغيرهم بإنكاره والنهي عنه ،
وأن ذلك هو للشرك الأكبر ، وأنه كفعل عابدى الأصنام ، كما دلّ على ذلك
الكتاب والسنة ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها . ونحن نذكر من كلامهم
قليلا من كثير ، وغَيضا من قَيض ، وقد تقدم بعض ذلك من كلام الله وكلام
رسوله ، ولا بد من ذكر ما تيسر من كلام العلماء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : من جهل بينه وبين الله
وسائط ، يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم ، كفر إجماعا . ونقل عنه ذلك أئمة
الحنابلة : كصاحب الفروع ، وصاحب الإيضا ، وصاحب الإقناع .

وقال الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله تعالى ، في رسالته الشَّنيّة ، لما تكلم
على حديث الخوارج : فإذا كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ،
من انتسب إلى الإسلام ، مَنْ قد مرّق من الدين ، مع عبادته العظيمة ،
فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام في هذا الزمان ، قد يمرّق أيضا ، وذلك
بأمور ، منها :

الغلو الذي ذمه الله ، كالغلو في بعض المشايخ ، كالشيخ عديّ ، بل الغلو
في عليّ بن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ، فكل من غلا في نبيّ أو رجل

صالح ، وجعل فيه نوعا من الإلهية ، مثل أن يدعو من دون الله ، بأن يقول : يا سيدى فلان أغثنى ، وأنا فى حسبك ، فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل ؛ فإن الله أرسل الرسل ، وأنزل الكتاب ، ليعبد وحده ، ولا يُجعل معه إله آخر ، والذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، مثل الملائكة والمسيح وعزير ، والصالحين أو قبورهم ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق أو ترزق ، وإنما كانوا يدعونهم ، يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله الرسل تنهى أن يدعى أحد من دونه ، لادعاء عبادة ، ولادعاء استغاثة . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواع الشرك : طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم . وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، فضلا عن استغاثة به ، وسأله أن يشفع له ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه . قال بعض المحققين : فلو جاز طلب الشفاعة من الميت والغائب ، لما صار لنفى الشفاعة فى القرآن معنى ، كقوله تعالى : « من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » . « ما لهم من دونه ولى ولا شفيع » . « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون » . فلا يظهر الفرق بين الشفاعة المنفية فى هذه الآيات ونحوها ، والمثبتة كما فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » . « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » . « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » .

فلا يظهر الفرق إلا أن المنفية هى التى تطلب من غير الله ويرغب فيها إلى غيره ؛ والمثبتة هى التى لا تطلب إلا من الله وحده ، وهو الإخلاص الذى

لا يُرْحَى من العبد سواء ، كما تقرر في كلام العلماء . قال ابن القيم : والله تعالى لم يجعل استغاثته بغيره ، وسؤاله لغيره ، سببا للإذن في الشفاعة ، وإنما السبب كمال التوحيد . فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها ، وهذه حالة كل مشرك ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات ، وهم تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين له ، بذمهم وعيبتهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ، وظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم .

وما نجا من شَرِك هذا الشَّرِك الأكبر ، إلا من جَرَّد توحيدَه لله ، وعادى المشركين في الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ الله وحده وليه ومعبوده ، فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجاءه وذله لله ، وتوكله على الله ، واستعانه بالله ، والتجاء إلى الله ، واستغاثته بالله ، وأخلص قصده لله ، متبعا لأمره ، متطليا لارضاته ، إذا سأل سأل الله ، وإذا عمل عمل الله ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله . انتهى كلامه .

قال الشيخ صُنْعُ الله الحَاجِي الحَنَفِي ، في كتابه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفا في الحياة وبعد الممات ، على سبيل الكرامة . « هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن الأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم ، ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات ، وبهمتهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم ، وينادونهم في قضاء الحاجات ، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات . وقالوا منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة ، وأربعون وأربعة . والقطب هو الخوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم

الذباح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الأجر . قال : « وهذا كلام فيه تفریط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدى ، والعذاب السرمدي ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالف العقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة ، وفي التنزيل : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نولّه ما تولى ، ونصله جهنم وساءت بصيرا » .

ثم قال : « فأما قولهم إن للأولياء تصرفا في حياتهم و بعد المات ... ، فيرده قوله تعالى : « إله مع الله » ؟ . « ألا له الخلق والأمر » . « لله ملك السماوات والأرض » ، ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه ، فالكل تحت مملكه وقهره ، تصرفا وملكا ، وإحياء وإماتة وخلقاً . وتمدح الرب تعالى بملكه في آيات من كتابه ، كقوله : « هل من خالق غير الله » ؟ . « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » وذكر آيات في هذا المعنى . ثم قال : فقوله في الآيات كلها « من دونه » : أي من غيره ، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده ، فإن من لم يقدر على نصر نفسه فكيف غيره ؟ إن هذا القول وخيم ، وشرك عظيم « إلى أن قال : « وأما القول بالتصرف بعد المات ، فهو أشنع وأبدع من القول في التصرف في الحياة . قال جل ذكره « إنك ميت وإنهم ميتون » . وقال : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت » . . . الآية « كل نفس ذائقة الموت » . « كل نفس بما كسبت رهينة » .

وفي الحديث : « إذ مات ابن آدم انقطع عمله » ... الحديث ، فجميع ذلك وما هو نحوه ، دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة

وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدلّ ذلك أن ليس للميت تصرف في ذاته ، فضلا عن غيره ، فإذا عجز عن حركة نفسه ، فكيف يتصرف في غيره . فإن الله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون إن الأرواح مطلقة متصرفة ، « قل أنتم أعلم أم الله » ؟

قال : « وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من المسكرات ، فهو من الغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله ، يكرم بها أوليائه ، لا قصد لهم فيه ولا تحدى ولا علم ، كما في قصة صريم بنه عمران ، وأسيد بن خضير ، وأبي مسلم الخولاني » .
قال : « وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد ، فهذا أتبع مما قبله ، وأبدع لمصادرتة قوله : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله » ؟ « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ وذكر آيات في هذا المعنى ، ثم قال : « فإنه جل ذكره قرأ أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير ، فهو المنفرد بذلك ؛ فإذا تعين هو جل ذكره ، خرج غيره من ملك ، ونبي ، وولي » .

قال : « والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية ، من الأمور الحسية : في قتال ، أو إدراك عدو ، أو سبوح ونحوه ، كقولهم « يا يزيد » « يا مسلمين » بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير ، أو في الأمور المعنوية من الشدائد : كالمرض وخوف الغرق والضيق ، والفقر وطلب الرزق ونحوه ، فمن خصائص الله ، لا يطلب فيها غيره » .

قال : « وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم ، كما تفعله جاهلية العرب والصفوية الجاهل ، وينادونهم ويستجدون بهم ، فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة ، أو قضاء حاجة ، تأثير ، فقد وقع في وادي جهل خطير ، على شفا حفرة

من السعير ، وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة . فهذا ظن أهل الأوثان ، كذا أخبر الرحمن : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . « ألتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تنغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون » ؟ فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر ، من نبي ، وولى وغيره ، على وجه الإمداد منه ، إشتراك مع الله ، إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره .

قال : « وأما ما قالوه إن منهم أبدالا ونقباء ، وأوتادا ونجباء ، وسبعين وسبعة ، وأربعين وأربعة ، والقطب هو النوث للناس . فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضى المحدث فى سراج المريدين ، وابن الجوزى وابن تيمية » انتهى باختصار .

وقال ابن عطية فى قوله تعالى : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك » (الآيات ؛ معناه : قيل لى ولا تدع ، فهو عطف على أقم . وهذا الأمر والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا كان هكذا ، فأخرى أن يتخذ من ذلك غيره ، والمخاطب خرج مخرج الخصوص وهو عام الأمة) .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير فى هذه الآية : (يقول تعالى ذكره ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالك شيئا ، لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك فى دين ولا دنيا ؛ يعنى بذلك الآلهة يقول تعبدوها راجيا نفعها ، أو خائفا ضرها ، فإنها لا تنفع ولا تضر ، فإن فعلت ذلك فدعوها من دون الله ، فإنك إذا من الظالمين . يقول : من المشركين بالله) . انتهى .

وهذه الآية لها نظائر كقوله : « فلا تدع مع الله إلها آخر ، فتكون من المعذبين » وقوله : « ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو » . فى هذه الآيات

بيان أن كل مدعو يكون لها ، والإلهية حق لله ، لا يصلح منها شيء غيره ،
ولهذا قال : « لا إله إلا هو » ، كما قال تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق ،
وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير » .

وقال الشيخ قاسم الحنفي ، في شرح درر البحار : [النذر الذي يَنْذُرُهُ
أكثر العوام ، على ما هو مشاهد ، كأن يكون لإنسان غائب أو مريض ،
أوله حاجة ، فيأتي إلى بعض الصُّلحاء ، ويجعل على رأسه سِتْرَةً ويقول :
يا سيدي فلان ، إن رد الله غائبي ، أو عوفي مريضى ، أو قضيت حاجتى ،
فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة أو من الطعام كذا ، أو من المال كذا ،
أو من الشمع والزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع ، لوجوه ، منها :

أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة ، والعبادة
لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المندور له ميت ، والميت لا يملك .

ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد
ذلك كفر .

إلى أن قال : إذا علمت هذا ، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت
وغيرها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء ، تقر با إليهم ، فحرام بإجماع المسلمين .
نقله عن ابن نجيم في البحر الرائق ، ونقله المرشدى في تذكرته ، وغيرهما
عنه ، وزاد : « وقد ابتلى الناس بهذا ، ولا سيما في مولد البدوى » . انتهى .

وقال العلامة أحمد الرومى الحنفي في كتابه المسمى « بمجالس الأبرار »
بعد كلام سبق في الكلام على زيارة القبور : « فإذا كان كذلك ، فاللائق
بالزائر أن يتبع السنة ، ويقف عندما شرع له ولا يتعداه ، ليكون الزائر محسناً
إلى نفسه ، وإلى أهل القبور ، لأن زيارة القبور نوعان :

زيارة شرعية ، وزيارة بدعية . أما الزيارة الشرعية التي أُذِنَ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمقصود منها شيثان : أحدهما راجع إلى الزائر ، وهو الاتعاظ والاعتبار . والثاني راجع إلى أهل القبور ، وهو أن يسلم الزائر عليهم ، ويدعو لهم .

وأما الزيارة البدعية فهي زيارة القبور ، وهو لأجل الصلاة عندها ، والطواف بها ، وتقبيلا واستلامها ، وتعفير الخدود عليها ، وأخذ ترابها ، ودعاء أصحابها ، والاستغانة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية والولد ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللّهفات ، وغير ذلك من الحاجات التي كان عباد الأصنام يسألونها من أصنامهم ؛ فإن أصل هذه الزيارة البدعية الشركية مأخوذ منهم ، وليس شيء من ذلك مشروعاً باتفاق المسلمين ، إذ لم يفعله رسول رب العالمين ، ولا أحد من الصحابة والتابعين ، وسائر أئمة الدين ، بل قد أنكر الصحابة ما هو دون ذلك بكثير ، كما روى عن العرو ابن سويد ، أن عمر صلى صلاة الصبح في طريق مكة ، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يصلون فيه ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ، ويتخذونها كنائس وبيعاً ، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد ، فليصلها فيها ، ومن لا ، فليمض ولا يتعمدها . وكذلك لما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بوع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل إليها فقطعها . فإذا كان عمر فعل هذا بالشجرة التي بايع الصحابة تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرها الله تعالى في القرآن حيث قال : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » ، فإذا يكون حكمه فيما عداها ؟ ولقد جرد السلف الصالح التوحيد ، وحوا جانبه ؛ حتى

كانت الصحابة والتابعون حيث كانت الحجرة النبوية منفصلة عن المسجد إلى زمن الوايد بن عبد الملك ، لا يدخل فيها أحد ، لا صلاة ولا دعاء ولا شيء آخر ، مما هو من جنس العبادة ، بل كانوا يفعلون جميع ذلك في المسجد . وكان أحدهم إذا سلم على النبي عليه السلام وأراد الدعاء ، استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ، ثم دعا . وهذا مما لا نزاع فيه بين العلماء ، وإنما نزاعهم في وقت السلام عليه .

قال أبو حنيفة : يستقبل القبلة عند السلام أيضا ، ولا يستقبل القبر . وقال غيره : لا يستقبل القبر عند الدعاء ، بل قالوا إنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ، ولا يستقبل القبر ، حتى لا يكون الدعاء عند القبر ، فإن الدعاء عبادة ، كما ثبت بالحديث المرفوع : « إن الدعاء هو العبادة » ، والسلف الصالح من الصحابة والتابعين جعلوا العبادة خالصة لله تعالى ، ولم يفعلوا عند القبور شيئا منها ، إلا ما أذن فيه النبي عليه الصلاة والسلام ، من السلام على أصحابها ، وسؤال الرحمة والمغفرة والعافية من الله لهم . وسبب ذلك أن الميت قد انقطع عمله ، وهو يحتاج إلى من يدعو له ، ويشفع لأجله . ولهذا شُرِعَ في الصلاة عليه وجوبا أو ندبا ، ما لم يُشْرَع مثله في الدعاء للحَيِّ ، فإننا لما كنا إذا قمنا إلى جنازته ندعو له ، ونشفعُ له ، فبعد الدفن أولى أن ندعوه ونشفع ، لأنه في قبره بعد الدفن أشد احتياجا إلى الدعاء ، منه على نعشه ، لأنه حينئذٍ معرض للسؤال وغيره ، على ما روى عن عثمان بن عفان ، أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه ، وقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل » .

وروى عن سُفيان الثوري ، أنه قال : « إذا سُئِلَ الميت : مَنْ ربك ؟

يتراءى له الشيطان في صورة ، ويشير إلى نفسه ، أى أنا ربك » قال الترمذى : هذا فتنة عظيمة .

وكانوا يستجيبون إذا وُضع الميت في اللحد ، أن يقال : اللهم أعذه من الشيطان الرجيم . فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل القبور بضعا وعشرين سنة ، وهذه سنة الخلفاء الراشدين ، وطريقة جميع الصحابة والتابعين ، فبدل أهل البدع والضلال قولاً غير الذى قيل لهم ، فإنهم قصدوا بالزيارة التى شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إحساناً إلى الميت ، وإلى الزائر سؤلهم الميت والاستغاثة به ، وليس هذا إلا الفتنة التى قال فيها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كيف إذا لبستمكم فتنه يهزم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ، تجرى على الناس ، يتخذونها سنة ، إذا غيرت قيل غيرت السنة .

قال : وقال ابن القيم فى إغاثة :

هذا يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا اعتبار ولا التفات إليه . وقد جرى العمل على خلاف السنة منذ زمن طويل ، فإذن لا بد أن تكون شديد التوفى من مُحدثات الأمور ، وإن اتفق عليه الجمهور ، فلا يغيرك إطباقهم على ما حدث بعد الصحابة ، بل ينبغى لك أن تكون حريصاً على التمييز عن أحوالهم وأعمالهم ، فإن أعلم الناس وأقربهم إلى الله ، أشبههم بهم ، وأعلمهم بطريقتهم ، إذ عنهم أُخذ الدين ، وهم أصول نقل الشريعة من صاحب الشرع ، فلا بد لك أن لا تكثر بمخالفتك لأهل عصرك ، فى موافقتك لأهل عصر النبي عليه السلام ، إذ قد جاء فى الحديث : « إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم » .

قال عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلاً ، والمخالف

له كثيرا، إلا أن الحق ما كان عليه الجماعة الأولى، وهم الصحابة، ولا عبرة إلى كثرة الباطل بعدهم.

وقد قال الفضيل بن عياض مامعناه: «الزم طريق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تنفر بكثرة الهالكين» انتهى كلامه.

وقال العلامة الرومي أيضا، في المجلس السابع عشر، في عدم جواز الصلاة عند القبور، والاستمداد من أهلها، واتخاذ الشرج والشموع عليها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». هذا الحديث من صحاح المصاييح. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

قال بعض المحققين: والصلاة في المواضع المتبركة من مقابر الصالحين، داخلية في هذا النهي، لا سيما إذا كان الباعث عليها تعظيم هؤلاء، لما في ذلك من الشرك، فإن مبتدأ عبادة الأصنام، كان في قوم نوح النبي عليه السلام، من جهة عكوفهم على القبور، كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: «قال نوح: رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا، ومكروا مكرا كبيرا وقالوا لا تدرن آهتكم، ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يعوث ويعوق ونسرا».

قال ابن عباس وغيره من السلف: كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح النبي عليه السلام، فلما ماتوا عكف الناس على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم. وهذا هو مبتدأ عبادة الأصنام. قال: وقال ابن القيم في إغائته، نقلا عن شيخه: إن هذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ القبور مساجد، هي التي أوقعت كثيرا من الناس: إمنا في الشرك

الأكبر، أو فيما دونه من الشرك؛ فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتَقَد صلاحه، أقرب إلى النفوس من الشرك بشجر أو حجر. ولهذا تجد كثيرا من الناس عند القبور يقضعون ويخشعون، ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلون مثلها في بيوت الله تعالى، ولا في السَّحَر، ويرجون من بركة الصلاة عندها، والدعاء لديها، ما لا يرجون في المساجد، فلحسم مادة هذه المفسدة، نهى عليه السلام عن الصلاة في المقبرة مطلقا وإن لم يقصد المصلي بصلاته فيها بركة البقعة، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها، ووقت استوائها، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة للشمس فيها، فنهى أمته عن الصلاة فيها، وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون. وإذا قصد الرجل الصلاة عند المقبرة تبركا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحاذة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى، فإن العبادات مبناهما على الاستئذان والاتباع، لا على الأهواء أو الابتداع. فإن المسلمين أجمعوا على ما علموه من دين نبيهم، أن الصلاة عند المقبرة منهي عنها، لأن فتنة الشرك بالصلاة فيها، ومشابهة عبادة الأصنام، أعظم كثيرا من مفسدة الصلاة عند طلوع الشمس، وحين غروبها، وحين استوائها، فإنه عليه السلام لما نهى عن تلك المفسدة سدا لذريعة التشبه، التي لا تكاد تخطر ببال المصلي، فكيف بهذه الذريعة التي كثيرا ما تدعو صاحبها إلى الشرك بدعاء الموتى، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم، أفضل من الصلاة في المساجد، وغير ذلك مما هو محاذة ظاهرة لله تعالى ورسوله.

قال: وقال ابن القيم في إغاثة: «من جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور، وبين ما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه الصحابة والتابعون، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضادا للآخر،

ومناقضه له بحيث لا يجتمعان أبداً » ... إلى أن قال : « وقد آل الأمر بهؤلاء
الضالين المضلين ، إلى أن شرعوا للقبور حَجًّا ، ووضعوا له مناسك ، حتى صنف
بعض غلاتهم في ذلك كتابا ، سماه (مناسك حج المشاهد) تشبيها منه للقبور بالبيت
الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول في دين عبادة الأصنام ،
فانظر إلى ما شرعه النبي عليه السلام في القبور من النهي ، وبين ما شرعه
هؤلاء وما قصدوه ، من التباين العظيم . ولا ريب أن في ذلك من الفساد
ما يعجز الإنسان عن حصره ، منها : تعظيمها الموقَّع في الافتتان بها . ومنها
تفضيلها على المساجد ، التي هي خير البقاع ، وأحبها إلى الله ، فإنهم إذا قصدوا
القبور ، يقصدونها مع التعظيم والاحترام ، والخشوع ورقة القلب وغير ذلك ،
مما لا يفعلونه في المساجد ، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا مثله . ومنها اتخاذ المساجد
والشُرُج عليها ، ومنها العكوف عندها ، وتعليق الشُتور عليها ، واتخاذ السَدَنَة
لها ، ومنها النذر لها ولسيدتها ، ومنها زيارتها لأجل الصلاة عندها ، والطواف
بها وتقبيلها ، واستلامها ، وتعفير الخدود عليها ، وأخذ ترابها ، ودعاء أصحابها ،
والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق ، والحافية والولد ، وقضاء الديون ،
وتفريج الكُرُبات ، وغير ذلك من الحاجات ، التي كان عبادة الأوثان يسألونها
من أوثانهم ، وليس شيء منها مشروعا باتفاق أئمة المسلمين ، إذ لم يفعل منه
شيئا رسول رب العالمين ، ولا أحد من الصحابة والتابعين ، وسائر أئمة الدين .
ومن المحال أن يكون شيء منها مشروعا وعملا صالحا ، ويُصَرَّف عنه القرون
الثلاثة التي شهد فيهم النبي عليه السلام بالصدق والعدل ، ويظفر به الخلوْفُ
الذين شهد فيهم النبي عليه السلام بالكذب والفسق .

فمن شك في هذا ، فلينظر هل يمكن بشرا على وجه الأرض أن يأتي عن
أحد منهم بنقل صحيح أو ضعيف ، أنهم كانوا إذا بذت لهم حاجة قصدوا القبور ،

فدعوا عندها ، وتسحروا بها ، فضلا أن يصلوا عندها ، أو يسألوا حوائجهم منها .
كلا ، لا يمكنهم ذلك ، بل إنما يمكنهم أن يأتوا بكثير من ذلك عن الخلوف
التي خلفت من بعدهم . ثم كلما تأخر الزمان وطال العهد ، كان ذلك أكثر ،
حتى وجدت من ذلك عدة مصنفات ، ليس فيها عن النبي عليه السلام ، ولا عن
خلفائه الراشدين ، ولا عن الصحابة والتابعين ، حرف واحد ، بل فيها من
خلاف ذلك كثير من الأحاديث المرفوعة ، التي من جملتها قوله عليه السلام :
« كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد أن يزور فليزر ، ولا تقولوا
هَجْرًا : أي فحشا » .

وأى فحش أعظم من الشرك عندها قولها وفعلا ، إلى أن قال : « فإن غلاة
متخذوها عيدا إذا رأوها من مكان بعيد ، ينزلون عن دوابهم ، ويكشفون
رءوسهم ، ويضعون جباههم على الأرض ، ويُقَبِّلُون الأرض . ثم إنهم إذا
وصلوا إليها يصلون عندها ركعتين ، ثم يفتشون حول القبر طائفين به ،
تشبيها بالبيت الحرام ، الذي جعله الله تعالى مباركا وهدى للأمم . ثم يأخذون
في التقبيل والاستلام ، كما يفعل الحجاج في المسجد الحرام ، ثم يعفرون جباههم
وخدودهم ، ثم يكلمون مناسك حج القبر بالخلق والتقصير ، ثم يقربون لذلك
الوثن القرايين ، فلا يكون صلاتهم ونسكهم وقربانهم وما يراق هناك من
العبرات ، ويرفع من الأصوات ، ويطلب منه من الحاجات ، ويسأل من تفرج
الكربات ، وإغذاء ذوى الفاقات ، ومعاقة أولى العاهات والبليات ، لله تعالى ،
بل للشيطان . فإن الشيطان لبني آدم عدو مبين ، يصددهم بأنواع مكائده عن
الطريق المستقيم .

ومن أعظم مكائده ، مانصبه للناس من الأنصاب ، التي هي رجس من عمل
الشيطان ، وقد أمر الله المؤمنين باجتنابها ، وعلّق فلاحهم بذلك الاجتناب ،

فقال : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

فالأنصاب : جمع نُصْبٍ بضمّتين ، أو جمع نَصْبٍ بالفتح والسكون ، وهو كل ما نُصِبَ وعيد من دون الله تعالى ، من شجر ، أو حجر أو قبر ، أو غير ذلك ؛ والواجب هدم ذلك كله ، ومحو أثره ، كما أن عمر لما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بويج تحتها النبي عليه السلام ، أرسل إليها فقطعها . ثم ذكر حديث أبي واقد الليثي ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنَيْنٍ ، ونحن حُدَنَاءُ عهد ، وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم وأمتعتهم ، يقال لها ذات أنواط . فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر ، إنها السَّنَنُ ، قلمٌ والذي نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة . لتركبُن سَنَنٌ من كان قبلكم » .

فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتطبيق الأسلحة والعكوف حولها ، اتخاذ إله مع الله تعالى ، مع أنهم لا يعبدونها ، ولا يسألونها شيئًا ، فالظن بغيرها عما يقصده الناس ، من شجر ، أو حجر أو قبر ، ويعظمونه ويرجون منه الشفاء ، ويقولون إن هذا الشجر أو هذا الحجر ، أو هذا القبر ، يقبل النذر الذي هو عبادة وقربة ، ويتمسحون بذلك النُصْبِ ويستلمونه ، وهذا الشيطان في كل حين وزمان ينصب لهم قبر رجل معظّمٍ يعظمه الناس ، ثم يجعله وثنا يعبد من دون الله تعالى ، ثم يوحى إلى أوليائه : أن من نهي عن عبادته ، وعن اتخاذ عيدا ، وعن جعله وثنا ، فقد تنقصه وهضم حقه ، فيسعى الجاهلون في قتله وعقوبته ويكفرونه ، وما ذنبه إلا أنه أمر بما أمر به الله تعالى ورسوله ، ونهى عما نهى الله تعالى ورسوله عنه .

والذى أوقع عبّاد القبور فى الافتتان بها أمور ، منها :

الجهل بحقيقة ما بعث الله تعالى به رسوله من تحقيق التوحيد ، وقطع أسباب الشرك ، فالذين قل نصيبهم من ذلك ، إذا دعاهم الشيطان إلى الفتنة بها ، ولم يكن لهم ما يبطل دعوته ، استجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل ، وعصموا منه بقدر ما عندهم من العلم .

ومنها أحاديث مكذوبة ، وضعها على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشباه عبّاد الأصنام من المقابرية ، وهى تناقض ما جاء به من دينه ، كحديث : « إذا تحيّرتم فى الأمور ، فاستعينوا من أهل القبور » ، وحديث : « إذا أعيتمكم الأمور ، فعليكم بأصحاب القبور » ، وحديث : « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لفعمه » . وأمثال هذه الأحاديث التى هى مناقضة لدين الإسلام ، وضعها أشباه عبّاد الأصنام من المقابرية ، وراجت على الجهال والضلال ، والله تعالى إنما بعث رسوله لقتال من حَسُن ظنّه بالأحجار والأشجار ، فإنه عليه السلام جنب أمته من الفتنة بالقبور بكل طريق .

ومنها : حكايات حُكيت عن أهل تلك القبور ، أن فلانا استغاث بالقبير الفلانى فى شدة ، فخلص منها ، وفلان نزل به ضُرّاً فتدعى صاحب ذلك القبر ، فكشف ضره ، وفلان دعاه فى حاجة ، فقضيت حاجته ، وعند السّدنة والمقابرية شىء من ذلك يطول ذكره ، وهم من أكذب خلق الله على الأحياء والأموات ، والنفوس مُوامة بقضاء حوائجها ، وإزالة ضرورتها ، لا سيما من كان مضطراً ، يتشبث بكل سبب وإن كان فيه كراهة ، فإذا سمع أحدٌ أن قبر فلان تريباق مجرب ، يميل إليه ، فيذهب ويدعو عنده بجرقة وذلة وانكسار ، فيجيب الله تعالى دعوته لما قام به من الذلة والانكسار ، لا لأجل القبر ، فإنه لو دعا كذلك

في الجبانة والحمام والسوق لأجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا في إجابة تلك الدعوة ، ولا يعلم أن الله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرا ، فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيا عنه ، ولا محباله ، ولا راضيا بفعله ، فإنه يجيب دعاء البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

يسر لنا الله تعالى من الدعاء والعمل ، ما يكون موافقا لرضائه ، بلطفه وكرمه .

انتهى كلام العلامة الرومي رحمه الله تعالى ، ببعض اختصار .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « والله تعالى لم يجعل أحدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والإلهية ، مثل ما يتفرد به من الخلق والرزق ، وإجابة الدعاء ، والنصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، بل غاية ما يكون العبد سببا ، مثل أن يدعو ويشفع ، والله تعالى قال : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، وقال : « وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . وقال تعالى : « ولا يأمر كرم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ، ولهذا كانوا في الشفاعة على ثلاثة أقسام : فالمشركون أثبتوا الشفاعة التي هي شرك ، كشفاعة الخلق عند الخلق ، كما يشفع عند الملوك خواصهم لحاجة الملوك إلى ذلك ، فيسألونهم بغير إذنه ؛ ويجيب الملوك سؤلهم ، لحاجتهم إليهم . فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله مشركون كفار ، لأن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافعين . ولهذا قال : « ما لكم من دونه ولي ولا شفيع » ،

وقال : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعا » . وقال عن صاحب يس : « أتتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تنن عني شفاعتهم شيئا ولا يُنقذون » . ؟
وأما الخوارج والمعتزلة ، فإنهم أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته ، وهؤلاء مبتدعة ضلال ، مخالفون للسنة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولإجماع خير القرون .

القسم الثالث :

أهل السنة والجماعة ، وهم سلف الأمة وأئمتها ، ومن تبعهم بإحسان ، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه وسنة رسوله ، ونفوا ما نفاه ، فالشفاعة التي أثبتوها هي التي جاءت بها الأحاديث . وأما الشفاعة التي نفاه القرآن ، كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة ، فينفونها أهل العلم والإيمان ، مثل أنهم يطلبون من الأنبياء والصالحين الغائبين والميتين قضاء حوائجهم ، ويقولون إنهم إن أرادوا ذلك قضوها ، ويقولون إنهم عند الله كخوادم الملوك عند الملوك ، يشفعون بغير إذن الملوك ، ولهم على الملوك إيدال يقضون به حوائجهم ، فيجعلونهم لله بمنزلة شركاء الملك ، والله سبحانه قد نزه نفسه عن ذلك . انتهى .
ولو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال المقام جدا .
وفيما ذكرنا كفاية لطالب الهدى ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، وبالله التوفيق .

فصل

واسئل العراقي بما روى الطبراني ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيمن انفلتت عليه دابته قال : « يا عباد الله احبسوا » .
ومحدث الأعمى .

والجواب أن يقال : سبحان الله ! كيف يتعلق بهذا ونحوه المشركون ،
ويرومون به معارضة الحجج القاطعة من كلام من يقول للشيء كن فيكون ،
وكلام رسوله الصادق المأمون ؟

ونحن بحول الله وقوته نتكلم على الحديثين ، ونبين معناهما ، ونوضح
منطوقهما وخواتمها ، ونقطع شغب كل مُشرك وجداله ، ونبين باطله ومَحاله ،
فنقول والله التوفيق :

اعلم أن الله سبحانه بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى التوحيد ،
والنهي عن الإشراك والتنديد ، فحَمَى صلى الله عليه وسلم حَمَى التوحيد ، وسد
كل طريق يوصل إلى الشرك ، حتى إن رجلا قال له : ما شاء الله وشئت ،
قال : « أجعلتني لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » . فكيف يأمر بدعاء الميت
والغائب ؟ بل من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، أن دعاء الميت والغائب
لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين ، ولا فعله أحد
من أئمة المسلمين ، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم
بعد موته . ولو كان هذا جائزا أو مشروعا لفعلوه ، ولو كان خيرا لسبقونا
إليه ، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمصار
عدد كثير وهم متوافرون ، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه ،
ولا استغاث به ولا استنصر به . ومعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي
على نقله ، بل على نقل ما هو دونه .

وحينئذٍ فلا يخلو إما أن يكون دعاء الموتى والغائبين ، أو الدعاء عند قبورهم والتوسل بأصحابها أفضل أولا . فإن كان أفضل فكيف يخفى علما وعملا على الصحابة والتابعين وتابعيهم ؟ فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة علما وعملا بهذا الفضل العظيم ، ويظفر به الخلوفا وعملا !

وهذان الحديثان اللذان ذكرهما هذا العراقي : إما أن يكون الصحابة الذين رووها وسمعوها من النبي صلى الله عليه وسلم جاهلين بمعناها ، وعلمه هؤلاء المتأخرون ؛ وإما أن يكون الصحابة علموها وزهدوا فيهما عملا ، مع حرصهم على الخير ، وطاعتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم ؛ وكلاهما محال ، بل هم أعلم الناس بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطوع الناس لأوامره ، وأحرص الناس على كل خير ، وهم الذين نقلوا إلينا سنة نبينا صلى الله عليه وسلم . فهل فهموا من هذين الحديثين جواز دعاء الموتى والغائبين ، فضلا عن استجابته والأمر به ؟ ومعلوم أنهم عرضت لهم شدائد واضطرابات ، ومحن وفتن وسنن ومجذبات ، أفلا جاءوا إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم شاكين ؟ وله مخاطبين بكشفها عنهم ، وتفريج كرباتهم ؟ والمضطر يتشبث بكل سبب يعلم أن له فيه نفعا ، لا سيما الدعاء ، فلو كان ذلك وسيلة مشروعة وعملا صالحا لفعلوه .

فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل القبور حتى توفاه الله ، وهذه سنة خلفائه الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين ، هل يمكن أحدا أن يأتي عنهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف ، أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة ، أو عرضت لهم شدة ، قصدوا القبور ، فدعوا عندها وتمسحوا بها ، فضلا عن أن يسألوها حوائجهم ؟

فمن كان عنده في هذا أثر أو حرف واحد فليوقفنا عليه . نعم لهم أن يأتوا

عن الخلف الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون بكثير من
المخترعات ، والحكايات المكذوبات ، حتى لقد صنف في ذلك عدة مصنفات ،
ليس فيها حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما فيها التويهات ،
والحكايات المخترعات ، والأحاديث المكذوبات ، كقولهم « إذا أعيتمكم الأمور ،
فعلينكم بأصحاب القبور » وحديث « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لفعه » ،
وفيها حكايات لهم عن تلك القبور ، بأن فلانا استغاث بالقبور الفلاني في شدة ،
فخلص منها ، وفلان دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت ، وفلان نزل به ضرر
فأتى صاحب ذلك القبر ، فكشف ضرره ، ونحو ذلك مما يعلم أنه مضاف لما بعث
الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويعلم أنه حتمى جانب التوحيد ، وسد الذرائع
الموصللة إلى الشرك ، فكيف يستدل بكلامه على تقيض ما أمر به ؟
فأما حديث « إذا انفلتت دابة أحدكم » إلى آخره فالجواب عنه
من وجهين : أحدهما أنه لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فإنه من رواية معروف بن حسان ، وهو منكر الحديث ، قاله بن عدى .
الوجه الثاني : « أن يقال على تقدير صحته ، معناه أن الإنسان إذا انفلتت دابته
وعجز عنها ، فقد جعل الله عبادة من الملائكة ، أو صالحى الجن ، أو ممن لا يعلمه
من جنده سواه ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، فإن هؤلاء عباد الله أحياء
حاضرون ، قد جعل الله لهم قدرة على ذلك كما جعل للإنس . فهذا كما إذا
انفلتت دابة الإنسان ، فتأدى أحد رفقته يا فلان : رد الدابة ، فلا بأس بهذا .
وبدل على هذا ما رواه البرار من حديث ابن على « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : إن لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة ، يكتبون
ما سمعتم من ورق ، فإذا أصاب أحدكم شئ بأرض فلاة ، فليناد : أعيونى » .
فإن هذا من الاستغاثة بأهل القبور لو كانوا يعقلون ؟ وأما حديث

الأعمى ، فذكر بحول الله وقوته عنه من صواب الجواب ، ما يتبين به الحق ،
ويزول به الارتباب ، فنقول : ذكر العلماء في معناه قولين : أحدهما أنه توسل
بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فيدل على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ،
إلا أن التوسل ليس فيه دعاء له ، ولا استغاثة به ، وإنما يسأل الله سبحانه ،
وهذا ذكره الفقيه أبو محمد بن عبد السلام ، فإنه أفتى بأنه لا يجوز التوسل
بغير النبي صلى الله عليه وسلم . قال : وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم
فيجوز إن صح الحديث ، يعني حديث الأعمى .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى : وما زلت أبحث
وأكشف ما أمكنتني من كلام السلف والأئمة والعلماء ، هل جوز أحد منهم
التوسل بالصالحين في الدعاء ، أو فعل ذلك أحد منهم ، فما وجدته . ثم وقفت
على فتيا للفقيه أبي محمد بن عبد السلام ، أفتى بأنه لا يجوز التوسل بغير النبي
صلى الله عليه وسلم ، وأما بالنبي صلى الله عليه وسلم فجوز التوسل به ، إن صح
الحديث في ذلك .

وذكر القُدُورِيُّ في شرح الكرخي ، عن أبي حنيفة ، وأبي يوسف ،
لا يجوز أن يسأل الله إلا به . انتهى كلامه .

وذكر ابن القيم ، رحمه الله ، عن أبي الحسين القُدُورِيِّ نحو ذلك ، فقال :
قال القُدُورِيُّ ، قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة :
لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ،
وأن يقول بحق فلان ، وبحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام .
قال أبو الحسين : أما المسألة بغير الله فنكرة ، لأنه لاحق لغير الله عليه ،
وإنما الحق له على خلقه . وأما قوله ، بمعاقد العز من عرشك ، فكرهه

أبو حنيفة ، ورخص فيه أبو يوسف ، وقال ابن بلدجى فى شرح المختار :
ويكره أن يدعو الله إلا به ، ولا يقول أسألك بملائكتك أو بانبيائك ،
ونحو ذلك ، لأنه لاحق للمخلوق على خالقه . ويقول فى دعائه : أسألك بمعد
العز من عرشك . وعن أبى يوسف جوازه . ومن قواعد الحنفية أن الكراهة
حيث أطلقت ، فالمراد منها للتحريم . ومن ذكر ذلك ابن نجيم فى « البحر » ،
حيث قال : وأفاد صحة إطلاق الحكم على المكروه تحريما . وذكر العلامة
ابن عابدين فى « رد المختار ، على الدر المختار » قال : وذكر محمد فى المبسوط
أن أبى يوسف قال لأبى حنيفة : إذا قلت فى شىء أكرهه ، فما رأيك فيه ؟
قال : التحريم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فى كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » :
لفظ التوسل بالشخص ، والتوجه به ، والتوسل به ، فيه إجمال واشتراك ، غلط
بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة ، يراد التسبب به ، لكونه داعيا وشافعا
مثلا ، أو يكون الداعى محباله ، مطيعا لأمره ، مقتديا به ، فيكون التسبب
إما بمحبة السائل ، واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الإقسام
به ، والتوسل بذاته . فهذا هو الذى كرهوه ونهوا عنه .

وكذلك لفظ السؤال بالشىء قد يراد به المعنى الأول ، وهو التسبب به ،
لكونه سببا فى حصول المطلوب . وقد يراد به الإقسام . ومن الأول حديث
الثلاثة الذين أووا إلى غار ، وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما ،
فإن الصخرة انطبقت عليهم ، فقالوا ليدع كل رجل منكم بأفضل عمله ،
فدعوا الله بصالح أعمالهم ، لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يتوسل به العبد
إلى الله ، ويتوجه به إليه ، ويسأله به ، وهؤلاء دعوه بعبادته ، وفعل ما أمر به
من العمل الصالح والتضرع ، وكذلك دعاء المرأة المهاجرة التى أحيا الله ابنها

لما قالت : « اللهم إني آمنت بك وبرسولك ، وهاجرت في سبيلك » ،
وسألت الله أن يحيي ولدها ، وأمثال ذلك وهذا ، وكما قال المؤمنون : « ربنا إننا
سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا . . .
الآيات ، فسؤال الله والتوسل إليه ، بامثال أوامره ، واجتتاب نواهيه .

أما قوله في حديث أبي سعيد : أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق
ممشى هذا ، فهذا الحديث رواه عطية العوفي ، وفيه ضعف ، لكن بتقدير
ثبوته ، هو من هذا الباب ، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق المطيعين
له أن يثيبهم ، فالسؤال له والطاعة ، سبب لحصول إجابته وإثابته . فهو من
التوسل به ، والتوجه به ، والتسبب به . ولو قدر أنه قسم لكان قسماً بما هو
من صفاته ، فإن إجابته وإثابته من أفعاله وأقواله ، فصار هذا كقوله في
الحديث الصحيح « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ،
وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك » . والاستعاذة لاتصح بمخلوق ، كمانص
عليه الإمام أحمد وغيره من الأئمة ، فاستعاذ صلى الله عليه وسلم بعفوه ومعافاته
من عقوبته ، مع أنه لا يستعاذ بمخلوق ، كسؤال الله بإجابته وإثابته ، وإن كان
لا يسأل بمخلوق . ومن قال من العلماء لا يسأل الله إلا به ، لا ينافي السؤال
بصفاته ، كما أن الحلف لا يُشرع إلا بالله ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك ،
ومع هذا فالحلف بعزة الله ، ولعمر الله ونحو ذلك ، مما ثبت عن النبي
صلى الله عليه وسلم الحلف به ، لم يدخل في الحلف بغير الله .

وأما قول بعض الناس أسألك بالله وبالرحم ، وقراءة من قرأ « تساءلون به
والأرحام » ، فهو من باب التسبب بها ، فإن الرحم توجب الصلة ، وتقتضى أن
يصل الإنسان قرابته ، فسؤال السائل بالرحم لعمره ، توسل إليه بما يوجب صلته
من القرابة التي بينهما ، ليس من باب الإقسام ، ولا من باب التوسل بما لا يقتضى

المطلوب ، بل هو توسل بما يقتضى المطلوب ، كالتوسل بدعاء الأنبياء وطاعتهم . انتهى ملخصا .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضا : وأما استشفاع الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله ، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم في الاستسقاء وغيره ، وقول عمر رضى الله عنه : كنا إذا أجدبنا تتوسل إليك بنبينا فنسقينها ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، معناه : إنا نتوسل بدعائه وشفاعته ، ليس المراد به ، تقسم عليك به أو ما يجرى هذا الجرى ، مما يفعل بعد موته في مغيبه ، كما يقول بعض الناس : أسألك بجاه فلان عندك ، ويقولون : إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ، ويروون حديثا موضوعا : إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عريض ، فإنه لو كان هذا التوسل الذى كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضى الله عنه ، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس ، مع علمهم أن السؤال به والإقسام به أعظم من العباس ، فعمل أن التوسل الذى ذكروه هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات ، وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم ، فإن الحى يطلب منه ذلك ، والميت لا يطلب منه شيء ، لا دعاء ولا غيره .

كذلك حديث الأعمى فإنه طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ليرد الله عليه بصره ، فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعته نبيه فيه ، فهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع فيه وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، أى بدعائه وشفاعته ، كما قال عمر : كنا نتوسل إليك بنبينا ، فلنفظ التوجه والتوسل في الحديثين بمعنى واحد ، ثم قال يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها ، اللهم فشفعه في ، فطلب من الله أن يشفع فيه نبيه ، وقوله

يا محمد يا نبي الله ، هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضر المنادى في القلب ، فيخاطب المشهود بالقلب ، كما يقول المصلى السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب .

واعلم ، رحمك الله ، أن العبادات مبناهما على الأمر والاتباع ، لا على الهوى والابتداع ، والتوسل الذي جاءت به السنة والأحاديث الصحيحة ، هو التوسل والتوجه إلى الله بأسمائه وصفاته ، وبالأعمال الصالحة كالأدعية الواردة في السنة نحو اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم .

وفي الحديث الآخر « اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وكقوله في الحديث الآخر « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، واستأثرت به في علم الغيب عندك » . وكما حكاه الله سبحانه عن عباده المؤمنين ، أنهم توسلوا إليه بصالح أعمالهم ، فقال تعالى حاكيا عنهم : « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا » . . . الآية .

وكذلك ما تقدم من قصة الثلاثة الذين أوتوا إلى الغار ، فانطبقت عليهم الصخرة ، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ، وكالتوسل بدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم في حياتهم ، كما كان الصحابة يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ، وكذا توسلهم بالعباس ، وبيزيد بن الأسود ، وتوسل الأعمى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، فهذا من الأمور المشروعة ولا نزاع فيه ؛ وأما التوسل بالذوات فما الدليل على جوازه ؟ ومن قال هذا من الصحابة

والتابعين ؟ وإذا وقع النزاع في مسألة وجب رد ذلك إلى الله والرسول ، كما قال تعالى : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وقال تعالى : « وما اختلفتم فيه من شئ فحكاه إلى الله » . ومعلوم أن هذا لم يكن منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من السلف ولا ريب أن الأنبياء والصالحين لهم الجاه عند الله ، لكن الذى لهم عند الله من الجاه والمنازل والدرجات أمر يعود نفعه إليهم ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا ، فإذا توسلنا إلى الله بإيماننا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، ومحبتنا وطاعته واتباع سنته ، كان هذا من أعظم الوسائل .

وأما التوسل بنفس ذاته ، مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته ، فلا يكون وسيلة ، فالتوسل بالخلق إذا لم يتوسل بدعائه أو بمحبته واتباعه ، فبأى شئ يتوسل ؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة ، فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك ، مثل أن يقول لأبى الرجل أو صديقه أو من يكرم عليه ، اشفع لنا عند فلان ، فهذا جائز ، وإما أن يقسم عليه ، ولا يجوز الإقسام بالخلق ، كما أنه لا يجوز أن يقسم على الله بالخلقين .

ويزيد المقام وضوحاً ، ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ، بعد كلام سبق ، قال : « لفظ التوسل والتوجه يرادُ به أن يتوسل إلى الله ، ويتوجه إليه بدعائهم وشفاعتهم ، فهذا هو الذى جاء في ألفاظ الصحابة من السلف رضوان الله عليهم ، كما في صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس ، وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فنسقيها ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، فهذا إخبار من عمر رضى الله عنه عما كانوا يفعلونه وتوسل منهم بالعباس كما كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم » قال : وهذا هو الذى ذكره

الفقهاء في كتاب الاستسقاء ، قالوا : ويستحب أن يستسقى بالصالحين وإن كانوا من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أفضل . انتهى .

وقد أزحتُ بحمد الله الإشكال وأوضحت فيه الحال . وقد قرر جمع من العلماء ما قرره شيخ الإسلام في معنى حديث الأعمى ، وبينوا أنه ليس فيه إلا طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا دلالة فيه على التوسل بالذات ، كالعلامة السويدي وابنه ، والشيخ نهبان بن العلامة محمود افندي الآلوسی ، في رده على هذا العراقي ، ونقل كلامهم يفضي إلى التطويل ، وقد تقدم ما فيه كفاية لطالب الحق .

وقال السويدي رحمه الله في شرح العقد الثمين ، بعد كلام سبق « وهذا التوسل الذي ذكر فيه الخلاف ، فيما إذا كان الداعي يتوجه إلى ربه متوسلاً إليه بغيره ، مثل أن يقول أسألك بجاه فلان عندك أو بجرمته أو بحقه ، وأما إذا توجه إلى ذلك الغير ، وطلب منه فهو شرك . كما تحقق » انتهى .
وهذا عين التحقيق ، وبالله تعالى التوفيق .

وقد أكثر هذا العراقي من ذكر عبارات الفقهاء في باب الاستسقاء من قولهم ويباح التوسل بالصالحين ، وأكثر من تكرير عباراتهم في ذلك للتحويل ، وطول بذلك أشد التطويل ، وظن أن في ذلك دليلاً على ما يدعو إليه من الشرك بالله ، وحاشا علماء الدين وأهل الحق واليقين أن يجوزوا الشرك بالله ، أو أن يجوموا حول حماه ، وإنما معنى ذلك التوسل به بدعائهم وابتهاهم لا غير ، كما تقدم ذلك . والله أعلم .

فصل

وذكر العراقي ما روى عن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما ، أن كلا منهما خَدِرَتَ رجله ، فقيل لكل واحد منهما أذكر أحب الناس إليك ، فقال : يا محمد .

والجواب أن يقال : سبحان الله ! هذا غاية ما عند هذا وأمثاله ، ونهاية محصول إشكاله . كيف يروم معارضة القواطع القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على وجوب إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله وحده ، ويحاول صرف الدعاء الذى هو منح العبادة إلى غير الله تعالى ، بهذا ونحوه ؟

ولنذكر الجواب عن ذلك :

قال الشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى في شرح الشفاء : وروى ابن عمر رضى الله عنهما ، رواه ابن السنني في عمل اليوم والليلة خَدِرَتَ رجله : أى أصابها خَدَرٌ فهو أمر يعتري الرجل لما يصيب العصب ، فيمنع من تحريكها بسهولة ، ويزول سريعاً ، لأنه لو امتد كان فالجاً أو مقدماته ، فقيل له اذكر أحب الناس إليك ، لأن الناس جربوا في الخَدَر أن من أصابه إذا ذكر محبوبه زال بسهولة ، لأنه بمسرتة تنتعش الحرارة الغريزية فيندفع الخَدَر ، فصاح : يا محمداه ، يعنيه صلى الله عليه وسلم ، لأنه أحب الناس إليه ، وإلى كل مؤمن ، فانتشرت رجله ، أى امتدت ، لزوال خدرها ، وهذا يقتضى صحة ما جربوه . وقد يقال : إنه وقع مثله لابن عباس رضى الله عنه وفيه يقول أبو العتاهية :

وتخدر في بعض الأحيان رجله فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

انتهى فهذا جواب ما ذكره ذو اللب المعكوس والقلب المنكوس ،
وهل يحتاج بمثل هذا الأثر المذكور بصيغة اليربوض على جواز الشرك بالله
إلا ذو قلب مريض ؟

فصل

قال العراقي : وههنا شيء يفيدك إن كنت تزعم أن التوسل ونداء الأنبياء
والصالحين وطلب الشفاعة منهم حرام ، فقد ذكر الفقهاء من كل مذهب
في باب الشهادة الحرمات الكبائر والصغائر واستوعبوها فانظر هل ترى هذا
من الحرم ؟ ثم قال : نعم ، ذكروا أن السجود لغير الله من الحرمات ، فإذا
كان السجود لغير الله من الحرمات ، وهو من أخص العبادات الخاصة بالله
لم يحكم على فاعله إلا بالذنب دون الكفر المخرج عن الملة ، كيف يكون
التوسل كفر ؟ انتهى .

أقول : تأمل كلام هذا الضال الخذول ، وانظر إلى خروجه عن المسموع
والمعقول ، يقول إن السجود لغير الله محرم ، فظاهر كلامه أن السجود لغير الله
محرم وليس بشرك ، وعنده أيضاً أن السجود لغير الله ذنب وليس شركاً ، فانظر
حيرة هذا الجاهل وعمايته ، وبلوغه في الضلال غايته ونهايته ، وقد قال الله
تعالى : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير
الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .
فهل صرح القرآن بأن الشرك من الحرمات أم لا ؟ فالشرك أعظم ذنب عصى
الله به ، وأشد الحرمات تحريماً ، وأعظمها عند الله تأثيماً .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « قلت
يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك .

قالت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟
قال : أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك « والذين لا يدعون مع
الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون » الآيات ،
فانظر : هل سمى الشرك ذنباً ؟ والشرك أظلم الظلم ، كما في الصحيحين عن ابن
مسعود رضى الله عنه أيضاً ، قال : لما نزل قوله تعالى : « الذين آمنوا
ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقالوا : أينما لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما هو الشرك ،
ألم تسمعوها إلى قول العبد الصالح : « إن الشرك لظلم عظيم » فليت شعرى
ما الذى يُخرج عند هذا من الملة إذا كان الشرك بالله لا يخرج عنده من الملة
وإنما هو ذنب ؟ » .

قوله : فلو كان ذلك كفراً للزم ذكره في باب الردة ، إلى آخر كلامه .

يقال : قد ذكر ذلك الجهابذة العلماء ، وصرح به النبلاء الفهماء ، اتباعاً
لكتاب الله وسنة رسوله ، كما تقدم من كلامهم القليل ، لكن ثم ماذا
إذا أعمى الله بصيرتك ، « ومن يرِدِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » .

وقال البخارى رحمه الله في صحيحه : باب المعاصي من أمر الجاهلية ، ولا يكفر
صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنك امرؤ
فيك جاهلية » . وقول الله تعالى : « إن الله لا يعفر أن يشرك به ويعفر
ما دون ذلك لمن يشاء » . وانظر باب الردة من كل مذهب فأول ما يذكره
الفقهاء أن يقولوا : من أشرك بالله تعالى كفر ، لقوله تعالى : « إن الله لا يعفر
أن يشرك به » . ومرادهم هذا الذى تسميه أنت وأضرابك توسلاً وتشفعا
واستمداداً ، وهل ينفعلك تسميته بغير اسمه وتغيير حقيقته ورسمه ؟ قال الشرك

بالله تعالى الذى قامت عليه الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وكلام العلماء ، شرك بالله ، شاء المشرك أم أبى ، وهل ينفع شارب الخمر تسميته بغير اسمه ؟ والمرابى تسمية الربا بغير اسمه ؟ والنظر إلى المسمى لا إلى الاسم ، وبالله التوفيق .

فصل

ثم كذب العراقى وافترى ، فقال : وقد كَفَّر هؤلاء الناس الصحابة ، بقولهم للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا ذات أنواط ، ثم ذكر أنهم خوارج ، وذكر بعض الأحاديث التى وردت فى الخوارج .

والجواب : أن هذه دعوى كاذبة ، فتقابل بالرد والمنع ، وعدم القبول ، ومن المعلوم أن المشار إليهم من أشد الناس تعظيما ومحبة للصحابة ، وأعظمهم اتباعا لهم ، واقفاء لآثارهم ، ولكن لما تصدوا لبيان شركه ، وانتصبوا لهلك باطله وأفكه ، وأولجوه المضايق ، وبينوا الحجج الواضحة ، وحققوا الحقائق ، فصار قصاراهم بهتهم ورميهم بما هم براء منه ، وما أشبهه بمن قيل فيه :

ويشتم أعلام الأئمة ضلَّة ولا سيما أن أولجوه المضايقا

والفرق بينهم وبين الخوارج : أن الخوارج يكفرون بكبائر الذنوب ؛ كالزنا والسرقة وشرب المسكر ونحو ذلك ، كما ذكره أرباب المقالات ، وهؤلاء إنما يكفرون بالشرك بالله ، كما تقدم بعض بيان ذلك بالأدلة الظاهرة والحجج المتفصرة ، من الكتاب والسنة ، وكلام علماء الأمة . وأما الذنوب كالزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها ، فحاشاهم من التكفير بذلك كما تقدم . فسبحان من طبع على قلوب من شاء من خلقه بعدله ! والخوارج كفروا والصحابة رضى الله عنهم ، بما جرى

بينهم من القتال ، كما جرى في وقعة الجمل بالبصرة بين علي وطلحة والزبير وعائشة ، وكما جرى بين علي ومعاوية في صفين ، وتلك ذنوب لا يكفر فاعلمها ، والصحابة رضى الله عنهم لهم حسنات عظيمة ماحية : إيمان ، وهجرة ، وأعمال ، وجهاد ؛ فالخوارج إنما كفروا أهل الإيمان بالذنوب ، وهذا وأمثاله عادوا أهل التوحيد لما أنكروا عليهم الشرك بالله ، ودعوهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، لا شريك له ، كما كان الصحابة رضى الله عنهم مع نبيهم صلى الله عليه وسلم وبعده يأمرون بالتوحيد ، وينهون عن الشرك ، فالأشبه بالخوارج على الحقيقة من يكفر أهل التوحيد ، وينصر الشرك بالله والتنديد ، بل هؤلاء أشد من الخوارج ، لأن الخوارج كفروا بالذنب ، وهؤلاء كفروا بمحض الإيمان ، كما قال العلامة ابن القيم :

مَنْ لِي بِشِبْهِ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَرُوا بِالذَّنْبِ تَأْوِيلًا بِلَا إِحْسَانٍ
وَلَمْ نَصُوصْ قَصَرًا فِي فَهْمِهَا فَاتَّوَا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعِرْفَانِ
وَخُصُومُنَا قَدْ كَفَرُونَا بِالَّذِي هُوَ غَايَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ

فالذي نعتقد وندين الله به ندعو إليه ، هو إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى ، وننكر أن يُصْرَفَ منها شيء لغير الله ، متمسكين في ذلك بكتابات الله وسنة رسوله ، وهذا هو سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين . فمن سبنا وأنكر علينا ، فقد سب من كان على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون ، من التوحيد ونفي الشرك ، وذلك مسبة للصحابة والتابعين ، فالسب في الحقيقة إنما سب الصحابة ، وأنكر عليهم ، لأن الذي أنكروه هو دينهم ، وبالله التوفيق .

فهذا آخر ما قصدناه من الكلام على شبهاته ، والتنبيه على بعض جزع عبائنه ، وقد سقطت به والحمد لله أباطيله ، واجتذبت به وساوسه وأضاليه ،

وهذه الشبه الفاسدة لا تحْدش في وجوه براهين التوحيد القاطعة ، وأدلة الكتاب والسنة القاطعة . ولو تتبعنا جميع هذَيَانِه وسوء فهمه لكلام العلماء ، وتصرفه فيه بالتأويل والحذف ، لطال الخطاب ، وكثر الجواب ، ولكن قد حصل المقصود ؛ وهو بيان التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، والجواب عن شبهات المبطلين ، والحمد لله على بيان الحجة ، ووضوح الحججة . و « الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » . والله المسئول أن يهدينا وإخواننا صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

قال مؤلفه : وكان الفراغ من رَقْمِه ، عشية السبت المبارك ، السادس عشر من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٤ بمكة المكرمة . على يد مؤلفه العبد الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته ، « أحمد بن إبراهيم بن عيسى » عامله الله بلفظه الحفي ، وأجراه على عوائد بره الحفي ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

ونقله من خط مؤلفه المذكور ، الفقير إلى رحمة ربه الغفور ، « عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن عامر » فرغت من زبده سنة ١٢٩٧ . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا .